سهر أوزت
نهر آيدين كوكدومان

السيرة النبوية للأطفال

-عشر سنوات فما فوق-



دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧/ ٢٠١٦

اسم الكتاب باللغة التركية: Benim Sevgili Peygamberim (10 yaş ve üzeri)

تأليف:

سهر أوزت

نهر آيدين كوكدومان

الرسومات:

سما ياماجتس

ترجمة: د. عبد الله المصري

اعداد:

أ. لقمان حلوجي

مدير تحرير:

د. فاروق قانكر

مراجعة وتصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٤٤١٤

طباعة وتغليف:

مطبعة دار الأرقم

Language: Arabic

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

السيرة النبويَّة

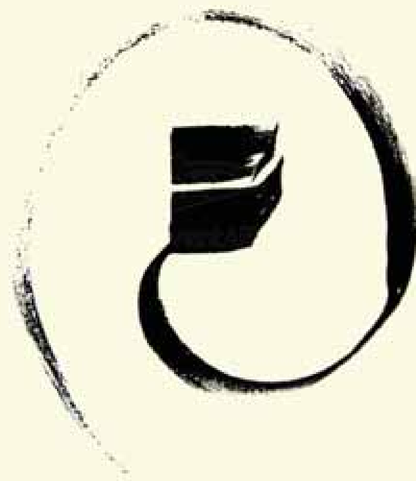
للأطفال

تأليف

سهر أوزت

نهر آيدين كوكدومان

-عشر سنوات فما فوق-



العهد المكي

الأنبياء والنَّاس

خلق الله ﷻ السموات والأرض منذ قديم الأزل. وَسِعَت قدرته كلَّ شيء. ثم خلق الإنسان الأول بعد ذلك. وكان اسمه آدم. وعلمه كل علوم الدنيا وأسمائها. علمه الصواب منها والخطأ. علمه الحب، والتعاون، ومشاطرة الغير. وكان آدم نبياً ومعلماً لمن سيأتى بعده من البشر.

أسكن الله ﷻ آدم عليه السلام في بادئ الأمر في الجنة. وخلق له زوجته حواء هناك. فشكل آدم وحواء أسرة في الجنة.

أرسل الله ﷻ آدم عليه السلام بعد ذلك إلى الدنيا. ورزقه أولاداً. في تلك الأثناء كان آدم عليه السلام قد بدأ يؤدي مهمته باعتباره نبيّاً. فكان لزاماً عليه أن يبين لأولاده الصواب من الخطأ.

من أجل هذا أخذ آدم عليه السلام يُحدث أبناءه عن الله ﷻ، ويعلمهم نمط السلوك الذي يحبه الحق ﷻ والسلوك الذي يكرهه. وعلم أولادُه أولادهم كذلك بالطريقة نفسها. واستمر الأمر على هذا المنوال.

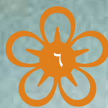
مرت سنوات طوال على آدم عليه السلام.



وجاء اليوم الذي نسي فيه الكثير من الناس بعض الأمور والسلوكيات السليمة. نسوا أن يشكروا الله. فأرسل الله ﷻ إلى الناس في ذلك الزمان نبيناً.

أراد النبي أن يذكرهم من جديد بما نسوه. فوظيفة الأنبياء هي الدعوة إلى الله الواحد، وتعليم الناس الخير والصواب. وبذلك





كان بنوآدم يتذكرون من أين وكيف ولماذا جاؤا إلى الدنيا. فمن فعل منهم الخير والتزم الصواب كما أراد الله ﷻ، دخل الجنة بعد موته.

لهذا السبب أرسل الله ﷻ عدداً كبيراً من الأنبياء والرسل في أزمنة كثيرة.

من هؤلاء الأنبياء؛ سيدنا نوح، سيدنا ابراهيم ، سيدنا موسى، وسيدنا عيسى عليهم السلام. ولكن الناس حادوا مرة أخرى عن الحق بعد سيدنا عيسى عليه السلام. ونسوا الله ﷻ.

كانوا يعلمون بوجود خالق وأن هذا الخالق هوالذي فطرهم. ولكنهم كانوا يجهلون كيف يعبدون هذا الإله الخالق. الله يسمعهم ويراهم. وهم يظنون أن الله لا يمكنه أن يراهم أويسمعهم، ويفكرون، ويقولون:

"لا بد من وسائل أخرى تُسمع أصواتنا إلى الله".

من هنا وضعوا وسيطاً بينهم وبين الله ﷻ. كانت هذه الوسائل إنساناً في بعض الأحيان؛ وكانت من الجمادات في أحيان أخرى. وقام الناس بعد ذلك بصناعة تماثيل للآلهة.

وكانوا يقولون لها " آلهتنا".

كانوا يسعدون لأنهم يرون آلهتهم. ويدعونها. وينحنون أمامها.وكان هذا أمر لا يحبه الله ﷻ.

لأن الخالق هوالله وحده لا شريك له. أما اختلاق إله آخر فهذا هوالخطأ الكبير.

أراد الله ﷻ أن يرسل خاتماً للأنبياء كي يخلص الناس من هذه الآثام.

لأن الله رؤوف بعباده رحيم.



شبه جزيرة العرب والكعبة

وُجِدَت الكعبة على أرض شبه الجزيرة العربية. بُنِيت الكعبة بأمر من الله ﷻ.

فقام سيدنا إبراهيم عليه السلام يعاونه ابنه سيدنا إسماعيل عليه السلام برفع قواعده...

احتلت الكعبة مكاناً مهماً بالنسبة للذين يؤمنون بالله ﷻ.

وكانوا ينظرون إليها باعتبارها **"بيت الله"**.

وقد دُعِي المسلمون من كافة أنحاء العالم في كل مكان وزمان لزيارة البيت.

فكان كل من يزورها يتذكر الله ﷻ، ويشعر أنه أكثر قرباً إليه سبحانه تعالى. وهم بذلك يبتعدون عن الشرور والآثام.

والكعبة بالإضافة إلى هذا مكان يلتقي فيه المسلمون من كافة أنحاء العالم.

ولكن جاء اليوم الذي نسي فيه الناس في شبه الجزيرة العربية دين الله ﷻ. واختلقوا لأنفسهم آلهة أخرى تُقربهم من الله ﷻ. وملؤا الكعبة من الداخل بتلك الآلهة.

كانوا يطلقون على هذه الهياكل اسم **"الأصنام"**.

ويأتي اللَّاتُ ومَنَاةُ والعُزَّى على رأس هذه الأصنام جميعاً.

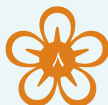
كان الناس يصطفون في المناسبات أمام هذه الأصنام ليعبدوها جميعاً.

وكانوا يأخذون أصناماً مشابهةً لها ليضعوها في بيوتهم، ويدعون إليها.

وكانوا يصنعون هذه الهياكل أحياناً من الحلوى، وأحياناً أخرى من الخبز، وكانوا لا يتورعون عن إلتهامها إذا شعروا بالجوع. كم هوغريب هذا الأمر!

هل الإله شيء يمكن للإنسان أن يأكله؟

لقد حاد الإنسان كثيراً عن الطريق القويم. وابتعد عن كل ما هوحسن جميل. وسار وفق هواه. كان الناس يخدع بعضهم الآخر، ولم يعد أحدهم يثق بالآخر.



ولم تكن للنساء على وجه الخصوص أي قيمة في المجتمع. فكان الجميع يسيء معاملتها، وكانوا لا يفضلون الأطفال من الإناث على الإطلاق. فيأخذ الأب ابنته ولا يتورع عن قتلها بيديه، ويفتخر بذلك.

كان الكثير من الناس يتخذون عبيداً لهم. وكلمة "**عبد**" هي اسم أُطلق على الشخص الذي سقط أسيراً في أوقات الحروب على وجه الخصوص، أوالشخص الذي اُختطف من دياره وبلده. وكان العبد يُباع ويُشترى في الأسواق مقابل المال.

لم يكن للعبيد سوى قدر ضئيل للغاية من الحقوق بدرجة يمكن معها القول أنها في حكم المنعدمة. كان العبيد يقومون بالأعمال الشاقة. وكان من الممكن لسيد العبد أن يسبه ويؤذيه.

ولم يكن أحد يفكر في أن هذه أشياء حرَّمها الله ﷻ. فالتعرض للإنسان بالأذى، والتعدي على الغير بالأذى هو إثم عظيم.

وبذلك بدت الدنيا في زمن مظلم كهذا كمن ينتظر من يأتي ويخلصها مما هي فيه. وكان ظهور نبينا الخاتم قريب. وعندما يأتي سيقوم بمحاربة الشرور، ويضيء دنيانا بنوره.



أبرهة الحقود

تقع الكعبة في مكة في الجزيرة العربية. تعيش حولها قبيلة تُسمى قُريش. حمل أهل هذه القبيلة على عاتقهم مسئولية حمايتها والإعتناء بها. كان أهل قريش يرون أنفسهم أفضل من القبائل الأخرى بسبب قيامهم بهذه المهمة. لأن الكعبة كانت مقدسة عندهم. فهي البناء الذي أمر الله ﷻ ببنائه. من أجل هذا وجبت حمايتها والإعتناء بها. ولكن ما يدعو للأسف أن أهل قريش كانوا يملؤن داخلها بالأصنام.

لم تخلُ الكعبة من الزائرين قط؛ لأنها المكان الذي يقصده الناس من كافة أرجاء العالم. فيتوافد عليها كل يوم وفود من الزائرين فيقومون بزيارتها أولاً قبل أن يشرعوا في عمل أي شيء آخر مهم بالنسبة إليهم. فكانوا يطوفون حولها، ويدعون الأصنام عندها.

كان من بين الناس في ذلك العصر من لا يزال يتذكر طريق الله القويم. وهؤلاء لم يؤمنوا بالأصنام. وكانوا إذا زاروا الكعبة يتوجهون لله بالدعاء. ولكنهم كانوا قليلو العدد للغاية. في تلك الأثناء كان يحكم اليمن والٍ يسمى أبرهة، وكان يدين بالمسيحية. ولكنه كان مثل غيره قد حاد وابتعد عن الطريق القويم.

كان أبرهة يحقد كثيراً على الكعبة لكثرة من يقومون بزيارتها. وكان يريد أن يُثني الناس عن الذهاب إلى هناك. من أجل هذا أمر ببناء كنيسة ضخمة زيَّنها من الداخل بالذهب واللؤلؤ.



وظن بذلك أن النّاس سيقصدون هذه الكنيسة التي زُينت بالذهب واللؤلؤ ويُعرضون عن الكعبة التي لا نافذة فيها ولا باب أيضاً. ولكن ما حدث هو أن أحداً لم يتوجه إلى كنيسته وهو الأمر الذي أغضبه كثيراً. ولم يعد أمامه شيء آخر يفعله سوى أن يقوم بهدم الكعبة! وبذلك يجد الناسُ أنفسهم مجبرين على القدوم إلى الكنيسة التي أمر ببنائها. فقام أبرهة على الفور بتجهيز جيش ضخم. وضم جيشه هذا عدداً من الأفيال الضخمة. وكان قد خطط أن يهدم الكعبة باستخدام هذه الأفيال.

لم يُضِع أبرهة مزيداً من الوقت، وتحرك بجيشه العملاق إلى حيث الكعبة. كان الجنود في الجيش أناساً شديدي السوء مثل أبرهة تماماً. فكان كل منهم يناصب الكعبة العداء. كما أنهم كانوا يدمرون ويحرقون كل مكان يمرون به في طريقهم، ويقتلون الأبرياء، ويستولون على ما لديهم من طعام.

كان يشعر كل من يرى هذا الجيش بالرعب ويلوذ بالفرار دون أن يلتفت وراءه. تُرى هل سيتمكن هذا الجيش الظالم من هدم الكعبة كذلك؟ هذا ما بدأ الناس يترقبونه بخوف.



عام الفيل

شعر أهل قريش بخوف شديد عندما علموا بقدوم أبرهة مع جيشه. في تلك الأثناء كان عبد المطلب زعيم قريش. فأمر قومه أن يخرجوا جميعاً إلى الجبال على الفور. فترك كل واحد منهم بيته وصعد إلى الجبل. فلم يكن لهؤلاء المساكين طاقة يمكنهم بها الوقوف في وجه جيش أبرهة الضخم.

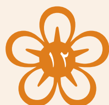
خوت البلدة في وقت قصير من النّاس. و لم يعد هناك وجود لأحد داخل البيوت. في تلك الأثناء وصل جيش أبرهة إلى مكة. كان الجميع يتابعون من فوق الجبل ما سيحدث بترقب. و بينما هم في ذلك ظهر عبد المطلب وكان يسير باتجاه جيش أبرهة. تعجب أهل قريش لذلك. ترى ما الذي سيفعله زعيمهم. كان أبرهة رجلاً قاسي القلب. ولم يكن مستبعداً أن يقتل عبد المطلب. قام جنود أبرهة بالقبض على عبد المطلب على الفور.

تحدث عبد المطلب، وقال:

"أنا زعيم قريش، وأود أن ألتقي أبرهة".

كان عبد المطلب قد توجه إلى هناك بدون سلاحه. جرى الجند، و قصوا خبر مجيئه.

لم يمض وقت طويل حتى خرج أبرهة لمقابلة عبد المطلب. كان يمتطي فرسه في خيلاء. ولكن



عبد المطلب مع أنه كان واقفاً على الأرض، إلا أنه بدا بوقفته المنتصبة أكثر قوةً من أبرهة. تحدث عبد المطلب إلى أبرهة، وقال:

- لقد استولى جنودك على إبل القوم أثناء مرورهم. وأريد أن أستردها.

تعجب أبرهة كثيراً، و وجه حديثه إلى عبد المطلب قائلاً:

- جئت لأهدم الكعبة و أنت تفكر بِإبلك؟

فرد عبد المطلب، وقال:

- للبيت رب يحميه.

غضب أبرهة، وصاح قائلاً:

- من يحميه مني!

غضب أبرهة من هذا الحوار. وأعاد الإبل إلى عبد المطلب.

تحرك الجيش لهدم الكعبة. ولكن الأفيال لم تتحرك؛ وخاصة الفيل "محمود" الذي كان في مقدمة الجيش. بدأ الجنود يضربون الفيل المسكين بالسياط. ولكن هذا أيضاً لم يجدِ معه نفعاً. فلم يكن الحيوان ليتقدم خطوة واحدة.

وفجأة امتلأت السماء بمئات من طيور صغيرة الحجم. كانت طيور"**أبابيل**". كانت هذه الطيور تحمل في أقدامها جميعاً حجارة صغيرة ملتهبة. بدأت هذه الطيور ترمي ما لديها من حجارة بسرعة فوق جنود أبرهة. فصارت السماء و كأنها تمطر حجارة. وكانت الحجارة إذا سقطت فوق أحد ثقبت جسده كما تفعل الرصاصة، فيخر على الفور على الأرض صريعاً.

كان عبد المطلب محقاً في مقولته: للبيت رب يحميه.

لقد حمى الله ﷻ بيته من هذا العدو القوي بهذا الطير الصغير. لأن الله شديد قوي. إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له كن فيكون. فلو أراد الله ﷻ أن يهدم عليهم الجبل لفعل. ولكنه سوَّى هذه الجيوش الضخمة بطير صغير.

تمزق جسد أبرهة أيضاً. و عاد إلى اليمن زاحفاً و قد أصيب بجراح شديدة. عاد حقيراً مُهاناً. ولم يمض وقت طويل على عودته إلى اليمن حتى مات هناك.

لم ينس أحد هذه الواقعة. وأطلقوا على هذا العام اسم "عام الفيل ". أمّا ما حدث لأبرهة فقد تناقلته الألسنة.

يتيم عبد الله

تحقق ما قاله عبد المطلب، فقد حمى الله ﷻ الكعبة. وصار الناسُ من بعدها يُظهرون احتراماً أكثر له. و صاروا يُجلُّونه كثيراً. لم يكن عبد المطلب ثرياً بينهم. كما أنه لم يعبد الأصنام قط.

و على الرغم من عدم ثرائه إلا أنه ينسب لعائلة ذات شأن. كان رجلاً عرف عنه صدقه. وكان يحسن معاملة الناس، فإذا تحدث بشيء مهم، استمعوا إليه.

كان لعبد المطلب عشرة أبناء. و كان عبد الله أحد أبنائه العشرة. أحب عبد المطلب عبد الله حباً شديداً. و عندما بلغ عبد الله سن الشباب تزوج من فتاة اسمها آمنة. كانت آمنة هي الأخرى شريفة النسب. ولكن هذا الزواج لم يستمر طويلاً، فما لبث عبد الله أن توفي بعد زواجه بمدة قصيرة. بقيت آمنة بعد وفاة زوجها وحيدةً. و كانت قد حملت طفلاً من زوجها.

حزن عبد المطلب حزناً عظيماً لوفاة ابنه. وأخذ آمنة معه. وكان يشعر بالأسى لحال ذلك الطفل الذي ستضعه آمنة. فهو طفل مسكين، لن يرى أباه طيلة حياته. ولكن عبد المطلب كان قد عقد العزم على أن يرعى زوجة ابنه وحفيده القادم أفضل ما تكون الرعاية.

مرت الشهور، وحانت اللحظة المُنتظرة. ابن آمنة يُشرِّفُ الحياة. عبد المطلب يصير جداً.

كان عبد المطلب يشعر بتوتر شديد، وحزن في الوقت نفسه.



كان يفكر في عبد الله، و يقول في نفسه:

"ليته كان قد رأى ابنه".

كان اسم الطفل محدد مسبقاً، كان "محمداً". لأن عبد المطلب رأى في منامه أن صوتاً ناداه من السماء، وقال له:

"سمِّه محمداً! لأنه هو المصطفى!"

جاء الطفل المُنتظر في النهاية إلى الدنيا. فبدا الليل كأن نور محمد قد أضاءه. كان وجهه البريء شديد النظافة. كان يبدو لطيفاً، محبوباً. اسمه في السماء "أحمد" وتعني "كثير الحمد".

أخذ عبد المطلب أكثر الأطفال لطفاً إلى حضنه وضمه بشدة.

في تلك اللحظة تذكر أباه عبد الله. قبَّل عبد المطلب حفيده من جبهته، وهمس له قائلاً:

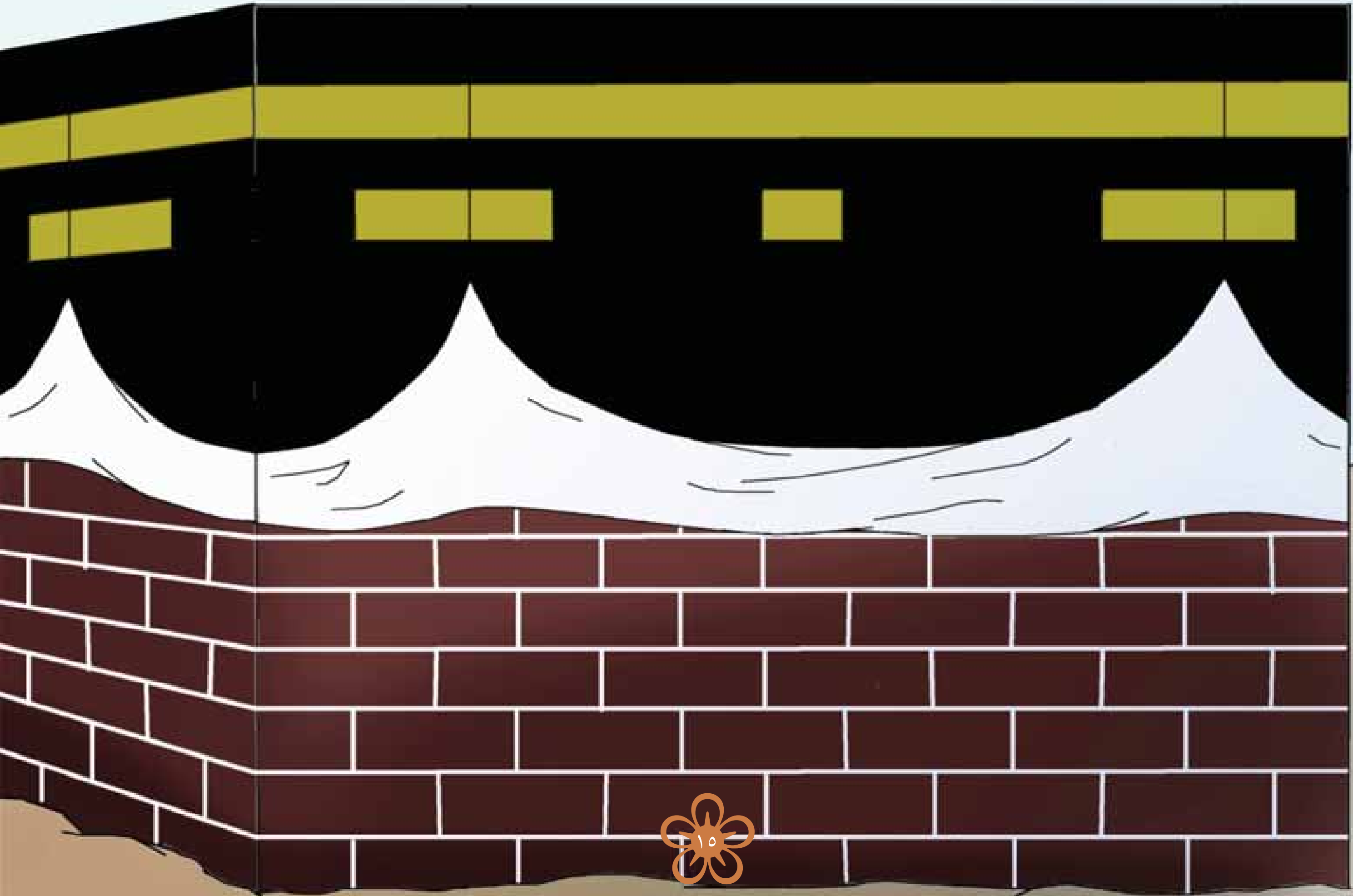
"أهلاً بك يتيم ابني عبد الله".

أهلا بك يا محمد .

أهلا بك أيها الرسول المبارك!

الدنيا بأسرها تنتظرك. تنتظر دعوتك الإنسانية إلى الله... تنتظر كشفك للظلمة.

أهلا بك أهلا بك.



ليلة مخيفة للظالمين

كان يتردد منذ عصر سيدنا موسى عليه السلام أن ثمة نجم جميل للغاية سيولد في السماء لحظة ميلاد خاتم الأنبياء. وأن هذا النجم سيكون مختلفاً عن باقي النجوم. سيكون شديد اللمعان. وكان الجميع و منهم الكهنة يترقبون مولد هذا النجم.

كان بعض الناس في الأزمنة القديمة يصدقون كل ما يقوله الكهنة. وكان الكهنة يقولون أنهم يطّلعون على المستقبل بالنظر إلى النجوم. بيد أن علم المستقبل بيد الله عز وجل وحده. ولو قال أحد أنه يعلم ما سيحدث في المستقبل فهذا يعني أنه كاذب.

في الليلة التي ولد فيها نبينا صلى الله عليه وسلم، كان هناك كاهنٌ يتطلع إلى السماء. فحدث شيء غريب. لقد ظهر في السماء ضوء باهر شديد اللمعان. بدأ الكاهن يتابع الضوء بذهول. تُرى هل من الممكن أن هذا

هو النجم الذي يتحدث عنه الكهنة؟ ذهب الكاهن على الفور، وأيقظ صديقه. وجريا سوياً نحو الحديقة، وأخذا يشاهدان معاً هذا النجم العظيم حتى الصباح.

أما الإمبراطورية الساسانية فعاشت ليلة مخيفة. كان يُعرف عن الساسانيين قوتهم وبأسهم. وكان يحكمهم ملوك عرفوا ببطشهم وظلمهم الشديد. نسوا أن مصدر قوتهم و ملكهم هو الله ﷻ وحده. و ظنوا أن قوتهم من أنفسهم.

فكان يقول أحدهم **"لا أحد يقدر على هزيمتي!"**.

كان لملك الساسانيين قلعة متينة، حصينة للغاية. ومع هذا انهار في تلك الليلة وفي لحظة واحدة أربعة عشر برجاً من أبراج القلعة الضخمة. كانت هذه الأبراج عند حيطان القلعة، وبدونها تفقد القلعة قوتها وتحصينها. فما كان المقصود أن تُسوَّى هذه الأبراج بالأرض دون أن تتعرض لأي هجوم؟ من أجل هذا شعر الملك ومن معه في القلعة بخوف شديد.

عاش الفرس في تلك الليلة وقتاً عصيباً كذلك. فقد اعتادوا على إشعال النار منذ ألف عام معتقدين أنها آلهتهم و من ثم كانوا يعبدونها، و يطلبون العون منها.



و لكن ما حدث في تلك الليلة أن هذه النيران قد انطفأت جميعها في لحظة واحدة. كيف يمكن لآلهة أن تنطفئ. من أجل هذا كان الفرس يشعرون بالدهشة البالغة.

في تلك الليلة كذلك جفت مياه **بحيرة ساوه** وانحسر ماؤها كلها، و كان الناس يظنون أنها بحيرة مقدسة. وبذلك اختفت في هذه الليلة الآلهة المزيفة التي كان الناس يظنون في قدسيتها. لأن الحقيقة هي أنه لا يوجد إله يُعبد بالحق سوى الله ﷻ و هذه هي القضية التي جاء خاتم الأنبياء يدعو الناس إليها. لقد استقبلت الدنيا مجيئه بسلام. إنه خاتم رسل الله الذي سيذكِّر الناس بالله ﷻ، و يدعوهم إلى ديننا الجميل الإسلام.



الطفل النوراني و المُرضعة

جو مكة المكرمة شديد الحرارة. والمطر فيها قليل. ولا تنمو الزروع في أرضها. حتى الحيوانات لم تقدر على ملأ بطونها. وتصبح الحياة أكثر صعوبة خاصة عندما يحل فصل الصيف. فيمرض الأطفال بسبب ارتفاع درجة الحرارة. أما الأطفال الرُّضع على وجه الخصوص فلم يكن لهم طاقة على احتمال درجة الحرارة تلك.

لهذا السبب جرت العادة في مكة أنهم كانوا يرسلون الأطفال الذين ولدوا حديثاً إلى قبائل تعيش في أماكن أخرى أقل في درجة الحرارة حتى لا يؤذيهم الحر الشديد. وكان الأطفال يكبُرون بشكل أسرع في تلك الأماكن التي يهطل بها المطر، وتنخفض فيها درجات الحرارة.

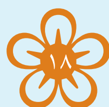
و من أجل هذا كانت نساء العائلات التي تسكن هذه الأماكن يأتين إلى مكة، ويأخذن الأطفال ليقمن بإرضاعهم. ويأخذن أموالاً ليقمن في المقابل بتوفير مأكل ومشرب كريمين لهؤلاء الأطفال. فإذا بلغ الطفل سن أربع أو خمس سنوات ردُّوه مرةً أخرى إلى أسرته.

كان نبينا ﷺ قد جاء إلى الدنيا حديثاً. كان طفلاً نوراني الوجه مثل الورد. وكان الجو شديد الحرارة كما هو معروف. يُضاف إلى هذا أن القحط كان قد حل بالمكان.

و لم تسقط قطرات صغيرة من المطر طيلة العام. وندر الطعام والشراب لدرجة يمكن معها القول أنه لم يكن هناك ماء ولا طعام. كانت آمنة وعبد المطلب يشعران بقلق شديد. فالطفل النوراني قد يمرض من جو كهذا. ولم يكن هناك مفر من أن يجدوا له مُرضعةً مثله في هذا مثل باقي الأطفال. وبدءوا ينتظرون.

وفي النهاية أقبلت من بعيد نساء من قبيلة بني سعد إلى قريش. كن سيأخذن الأطفال الصغار. ولكنهن جئن يبحثن عن أطفال الأغنياء. لأنهم كانوا يقومون بهذا الأمر لتأمين معيشتهم. تحدث عبد المطلب معهن عن حفيده. وطلب منهنَّ أن يأخذنه. و لكن عبد المطلب لم يكن غنياً. والطفل يتيم الأب. فممن سيأخذن المال إذن؟

لهذا السبب أعرضت النساء عن الطفل و لم تقبل به.



لم ييأس عبد المطلب. وأخذ يبحث لحفيده عن مرضعة، وبينما هو في ذلك رأى سيدة، فسألها قائلاً:

- من أنتِ يا ابنتي؟ من أي قبيلة أنتِ؟ و لماذا أقبلتِ إلى مكة؟

ردت السيدة وقالت:

- اسمي **حليمة**، وأنا من بني سعد. أنا مُرضعة، وأبحث عن طفل. وقد وصلت إلى هنا متأخرة لأن زوجي مريض. وقد أخذت المُرضعات كل الأطفال. وعجزت أن أجد طفلاً.

رد عليها عبد المطلب، وقال:

- ابنتي أنا رجلٌ فقير. و لدي في بيتي طفل يتيم. و أبحث له عن مُرضعة. ولكني لا أستطيع أن أغدق عليه الكثير من المال.

سَعِدت حليمة. فقد كانت لا تريد أن تعود إلى قبيلتها خاوية الوفاض. وبالفعل قبلت أن تقوم على رعاية الطفل. وتوجهت إلى البيت مع عبد المطلب. وهناك التقت بآمنة. وما أن رأت حليمة الطفل النوراني حتى شعرت بالسعادة. واحتضنته بسعادة.

كانت المرضعات الأخريات قد غادرن مكة منذ مدة طويلة. وبقيت حليمة. ولكن في طريق العودة حدث شيء غريب. فقد تعافى حمارها المريض فجأةً. و تخطى جميع الدواب الأخرى. لقد بدت حليمة و الطفل النوراني كأنهما فتحا شراعاً، فقد كانا يسيران في المقدمة كما لو كانا يجريان.



اللّهم أرسل علينا المطر

حل القحط ذلك العام بقبيلة بني سعد أيضاً. وأصبحَ القوم يجدون مشقة في الحصول على الطعام. حتى العشب جف. ولم تستطع الحيوانات المسكينة أن تملأ بطونها بالطعام.

و لهذا السبب لم تعد تدر اللبن أيضاً. وعلى الرغم من هذا أقبلت البركة وحل الخير في بيت حليمة. فكانت الخضراوات التي تزرعها هي وزوجها الحارث، كانت تنمو وتترعرع. و أخذت الحيوانات هي الأخرى تسمن، و تُدِر لبناً كثيراً. و لم يكن أحد ليعرف السبب من وراء ذلك.

وعلى الرغم من هذا فكانت حليمة تدرك جيداً أن ما يعيشونه من رغد العيش مرتبط بهذا الطفل النوراني. فمنذ أن جاء إلى بيتهم والأحوال كلها تغيرت إلى الأفضل.

مرت الشهور على وجود هذا الطفل النوراني في بيت حليمة، و بدأ أشخاص آخرون في قبيلة بني سعد يتحدثون أيضاً و يقولون: "منذ أن جاء هذا الطفل القريشي لم يعد بيت الحارث يعاني من أي ضائقة".

تعوَّد بنو سعد على الخروج للدعاء والتضرع إلى الله ﷻ في الأوقات التي تمسك فيها السماء عن المطر. من أجل هذا كانوا يستعدون للخروج في وقت قريب في هذه المرة أيضاً من أجل الدعاء. ولكنهم خططوا هذه المرة أن يصطحبوا معهم هذا الطفل النوراني، وجاءوا إلى بيت الحارث، و قالوا: - يا حارث، منذ أن جاء الطفل المكي إلى بيتك، وأنتم تعيشون في رغد العيش. فربما أمطرت السماء على أرضنا و نلنا الخير أيضاً لو أخذناه معنا لدعاء المطر.



قبلت العائلة طيبة القلب بهذا المقترح.

وعلى الفور قامت حليمة بتجهيز الطفل النوراني. وحمله الحارث في حضنه، وذهب به إلى حيث مكان الدعاء.

أخذ الرجل محمداً ﷺ في حضنه، و فتح يديه، وقال:

- يا رب العالمين! اقبل دعائنا. وأرسل علينا المطر كرامة لهذا الطفل الصغير.

شارك الحاضرون أيضاً في الدعاء. كان الجميع يمعنون النظر في السماء بترقب.

و لم يمر سوي وقت قصير عندما بدأت رياح خفيفة تهب.

ونظر الناس فرأوا سحباً بدأت تظهر في السماء.

أخذت السحب تقترب رويداً رويداً. ولم يمر وقت طويل حتى امتلأت السماء بهذه السحب.

وبدأت الأمطار تهطل. ولم يردَّ رب العالمين الدعاء.

أدرك الناس أن سقوط المطر في ذلك العام كان بسبب هذا الطفل النوراني.

وبذلك نجا بنو سعد من القحط.

وتحولت حقولهم وحدائقهم إلى اللون الأخضر.

وأمست الحيوانات تدر اللبن. وحلت البركة و الخير في البيوت.

وصارت وجوه الناس ضاحكة سعيدة. وأضحى الناس يوقرون الحارث وحليمة ويظهرون لهم الإحترام. لأنهم يعتنون بالطفل النوراني. وأصبح الجميع فرحين بوجود الطفل النوراني بينهم.



وداعاً أُماه

ظَلَّ الطفل النوراني في بيت مرضعته حليمة إلى أن بلغ سن الرابعة، وكان قد كبُرَ وترعرع. قامت حليمة بتسليمه إلى أمه. وعند مغادرتها تعانقت هي والطفل النوراني بحب. كان شاقاً للغاية على حليمة أن تفترق عن هذا الطفل النوراني.

الآن أصبح الطفل النوراني إلى جوار أمه، وبين جده عبد المطلب ومربيته أُم أيمن. كان الطفل النوراني يحبهم جميعاً. بلغ سن الخامسة و لكنه لم يرَ أباه طيلة حياته. لم يتذمر من حياته، بل كَبُرَ بحب أمه و جده.

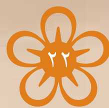
مر عام وهو على هذه الحال. وفي يوم من الأيام أرادت أمه أن تذهب إلى المدينة عند أقارب لها هناك، بالإضافة إلى أن قبر زوجها عبدالله كان هناك أيضاً، وكانت تريد أن تزوره. من أجل هذا بدأت تُعد للرحلة. و في اليوم المحدد أخذت الطريق إلى المدينة بصحبة الطفل النوراني ومربيته.

وصل الرَكبُ في النهاية إلى المدينة بعد رحلة طويلة. وهناك نزلت في بيت بن خالها. وكان قبر عبد الله في حديقة هذا البيت أيضاً. وقف الطفل النوراني على أس القبر،



في حين أخذت أمه تبكي زوجها. كان الحزن يلف داخل الطفل النوراني. و أخذ يسكب الدموع على أب لم يره قط في حياته.

ظلا في المدينة مدة شهر، أمضى خلالها الطفل النوراني مع أمه وقتاً جميلاً تعرف فيه على أقاربه هناك وأحبهم. وجاء وقت العودة مرة أخرى إلى مكة. فخرجوا مرة أخرى قاصدين مكة. ولكن أحياناً لا تدوم السعادة كثيراً.



وهذا مع حدث هذه المرة. فقد مرضت آمنة في الطريق. و لم يكونوا قد قطعوا سوى نصفه فقط.

وعندما شق عليها تحمل الطريق، نزلوا بقرية يُقال لها "الأبواء".

كان الطفل النوراني يدرك أن أمه مريضة للغاية. من أجل هذا كان يبكي عند رأسها. أما آمنة فكانت تمسك يد طفلها الوحيد وتضغط عليها بشدة.

وظلت تفكر فيه حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. أخذت قوى آمنة تخور يوماً بعد الآخر حتى وافتها المنِية هناك.

ولد الطفل النوراني بدون أب، وها هو الآن يفقد أمه كذلك ليصبح وحيداً في هذه الدنيا. أخذت دموعه تسيل أكثر فأكثر...

حزن عبد المطلب الذي سمع بهذا الخبر كثيراً.

وعلى الفور قام بضم حفيده إليه. واحتضنه بحب وشفقة. كان عبد المطلب رجلاً سريع الغضب. يغضب ويثور على أي شيء في لحظة واحدة.

من أجل هذا لم يكن أحد يجرؤ على الوقوف أمامه. كما أنه كان زعيم قريش. ولَم يَكُن أحد ليجرؤ على الجلوس مكانه في الاجتماعات. لكنه مع ذلك كله كان يحب حفيده محمداً.

فقد كان حفيده الوحيد،

و يتيم عبد الله الحبيب.





لا تحزن أيها الطفل النوراني

كان عبد المطلب قد بلغ سن الثمانين. و في يوم من الأيام كان سيرحل عن الدنيا.

لهذا السبب كان يفكر كثيراً في حفيده. ومن سيهتم به و يرعاه عندما يفارق الحياة. لا بد أن يتركه لأحد يثق فيه.

كان لعبد المطلب عشرة من الأبناء، لم يجد من بينهم من هو أفضل من أبي طالب ليقوم بهذا الأمر. فأبو طالب يمكنه أن يعتني بمحمد ﷺ كما ينبغي.

و لكنه أراد على الرغم من هذا أن يسأل حفيده عن رأيه في هذا الأمر.

جمع عبد المطلب أبناءه جميعاً. كان محمد ﷺ سيختار واحداً من بينهم، فعبد المطلب لم يجبر الطفل النوراني على شيء قط.

توجه الطفل النوراني على الفور إلى عمه أبي طالب الذي أحبه كثيراً، و احتضنه. سعد عبد المطلب كثيراً من هذا الأمر.

فعلى الرغم من أن أبا لهب كان أكثرهم ثراءً، و يمكنه تنشئته في ظروف أفضل، إلا أن الحب كان أهم من هذا كله. و ها هو الطفل النوراني يكشف عن حبه الشديد لأبي طالب.

عندئذٍ تحدث عبد المطلب مع ابنه قائلاً:

"يا أبا طالب، إني استودعك ابن أخيك المتوفى محمداً ﷺ أمانة. فاعتنِ به كثيراً"

وعد أبو طالب أباه بأنه سيرعى ابن أخيه كثيراً. لأنه كان يحبه كثيراً.

مَرَّت الأيام، وأصبح عبد المطلب شيخاً كبيراً في السن غير قادر على التنقل بمفرده. وذهبت قوته، و أصابه المرض.

أخذ المرض يشتد عليه مع كل يوم يمر حتى توفي هو الآخر في يوم من الأيام.

حزن الطفل النوراني مجدداً على فقد جده. فهو الذي فقد أباه، ثم أمه، و الآن يفقد جده أيضاً. لم يكن قد تجاوز الثامنة من العمر بعد عندما فقد كل أقربائِه.

من سيمسح فوق رأسه بعد الآن؟

من سيلعب و يلهو معه؟

من سيقبله بين عينيه؟

إلى من سيقول كلمة "جَدّي" بعد الآن؟

إنه يشتاق إلى جده منذ تلك اللحظة.

لم ينسَ أبو طالب الوعد الذي قطعه على نفسه أمام أبيه. فهو أفضل من يفهم ما يعانيه ابن أخيه من آلام. احتضن أبو طالب الطفل النوراني بحب. وأمسك بيده، وذهب به إلى زوجته فاطمة،

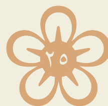
و قال لها:

" أصبح لدينا ابن آخر".

" بيتنا صغير، و عائلتنا كبيرة؛ ولكن لابن أخي مكان مختلف".

أصبح للطفل النوراني بعد ذلك اليوم عائلة جديدة. احتضنت فاطمة الطفل النوراني. وكانت تشعر بالأسى لأجله. كانت لا تريده أن يشعر أنه وحيد.

كان لأبي طالب و فاطمة خمسةَ عشر طفلاً. ولكنهما كانا يخصانه باهتمام أكبر؛ فكانا يُطعمان محمداً ﷺ قبلهم جميعاً. ويلبسانه قبلهم حتى لا يشعر بالبرد وكانا يحبانه كثيراً.



حتى لا يراه اليهود!

كان الطفل النوراني قد انتقل للعيش مع عمه أبي طالب. وكان قد بلغ العاشرة من العمر. ولع محمد ﷺ برعي الأغنام و الإبل. وكان بذلك يساعد عمه. وكان عمل أبو طالب الأساسي هو التجارة، أما محمد ﷺ فكان يريد أن يعمل بها هو الآخر فيبقى بذلك إلى جوار عمه مدة طويلة.

من أجل ذلك كان يرجو عمه وقت خروج القافلة، و يقول له: "خذني معك".

و لكن عمه لم يكن يقبل بذلك. لأَن محمداً ﷺ كان لا يزال صغيراً لا طاقة له على تحمل الطريق الطويل. ومرت الأيام. وبلغ الطفل النوراني الثانية عشرة من العمر. و صار يتجه نحو مرحلة الشباب.

وفي يوم من الأيام، وبينما أبو طالب يعد العدة للخروج بالتجارة مجدداً، جاء الطفل النوراني إليه وطلب منه أن يذهب معه، وأخذ يكرر في رجائِه. كان يظن أنه لن يقبل بأي حال من الأحوال. ولكن عمه قبل هذه المرة و وافق على اصطحابه معه. وبالفعل أخذه معه، وخرجت القافلة، كان الطفل النوراني يشعر بسعادة بالغة.

حطت القافلة رحالها في مكان قريب من الشام يُقال له بُصرى. وكما هي العادة في هذا الزمن كان الذين يعملون بالتجارة يخرجون في سفرهم معاً. ويحملون بضائعهم معاً يقطعون الصحراء فوق إبلهم. و هذا ما كان يُطلق عليه اسم " القافلة التجارية ".



وكان في طريق القافلة مكان يتعلم فيه المسيحيون الدين المسيحي. والراهب بحيرا هو اسم رجل الدين الذي سكن هذا المكان. وكان يؤمن بسيدنا عيسى عليه السلام، و كان أحد الذين ينتظرون ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر بقدومه سيدنا عيسى عليه السلام.

رأى بحيرا القافلة القادمة من مكة. ولفت انتباهه وجود سحابة تظلل القافلة. كانت السحابة تتحرك مع القافلة أينما سارت. بدأ بحيرا يراقب القادمين في القافلة.

و لفت انتباهه أن هذه السحابة تظلل هذه القافلة دون غيرها. فقام على الفور بإعداد وليمة فاخرة للقادمين في القافلة. ودعى إليها كل من في قافلة مكة. اجتمع الطفل النوراني ومن بالقافلة على المائدة. أحب بحيرا الطفل النوراني منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها. وبدا وكأنه قد تحول إلى شخص آخر تماماً. أراد أن يسأله بعض الأسئلة، ودار بينهما الحوار التالي:

- أقسمت عليك باللات والعزى؟ هلّا أجبت عن أسئلتي؟
- أنا لا أؤمن باللات والعُزى. لأنني أنفر منهم جميعاً.

ابتسم بحيرا، و عاود أسئلته قائلاً:

- حسناً، أقسمت بالله عليك هلّا أجبت عن أسئلتي؟
- الآن يمكنك أن تسأل ما بدا لك.

سأل بحيرا سؤالاً دار في ذهنه فأجاب عنه محمد صلى الله عليه وسلم.



أعجب بحيرا كثيراً بالحديث مع الطفل على الرغم من حداثة سنه. فانحنى على أبي طالب في معزل عن القوم، و قال له:

- سيكون لهذا الطفل شأن عظيم في المستقبل. ولو أخذت بمشورتي فخذه من هنا. ولا تذهب به إلى الشام. فاليهود حاقدون. ولو فطنوا لأمره فربما أصابوه بسوء.

شعر أبو طالب بالخوف على ابن أخيه. فلم يكن يريد أن يقع به مكروه. فاستمع لنصيحة بحيرا، و باع بضاعته لمن كانوا معه في القافلة، و عاد مرة أخرى مع ابن أخيه إلى مكة.

للظلم نهاية

أخذ أفضل طفل حملته الأرض يكبر. وها هو الطفل النوراني يبلغ سن الشباب. وكان يزداد جمالاً كلما كَبُر. كان طويل القامة، ولكنه لا يُعد مع هذا مفرطاً في الطول. عيناه كبيرتان لونهما أسود. له حاجبان مستويتان يميلان إلى الكثافة. أبيض البشرة. تشم منه رائحة جميلة باستمرار. رموشه طويلة. شعره أسود فاحم مموج. جبهته عريضة. له وجه باسم باستمرار.

لا يُشبهه أحد في أخلاقه. صادق لا يقول كذباً. لم يؤمن بالآلهة المزيفة، و لم يدعُ صنماً، بل كان ينفر منها. لا يخدع الناس. لا يعد أحداً بما لا يستطيع القيام به. يحب عمل الخير. ولا يتعرض بأذى لأحد.

لهذا السبب كان محط احترام الناس، وتقديرهم، وثقتهم كذلك. سُمِح له على الرغم من حداثة سنه بالإلتحاق بحلف الفضول. وحِلْفُ الفضول هو مجلس يجتمع فيه الناس لمنع الظلم. يحاولون المنضمون إليه منع الظلم والسوء أينما رأوه.



و يمكن الحديث عن سبب تكون حِلْف الفضول كما يلي: كان في مكة تاجر يُدعى العاص بن وائل. وفي يوم من الأيام سلب العاص بن وائل حق أحد التجار الذين قدموا إلى قريش. فأخذ منه بضاعته ولم يعطه مالاً. فأخذ الرجل المسكين يبحث عن أحد ليعيد له حقه المسلوب. ولكنه لم يجد أحداً. فصعد فوق جبل أبو قُبَيس، وأخذ يحكي لأهل قريش عما حدث معه. سمع بقصة هذا التاجر بعض الوجهاء، وشعروا بالخجل مما حدث. وقرروا فيما بينهم أن يضعوا نهاية لهذا الظلم. وكان أول عمل قاموا به أنهم توجهوا إلى العاص بن وائل، وأخذوا منه ثمن البضاعة، وأعطوها للتاجر. كان هؤلاء الأشخاص يقولون:

"نحن أناس ذوو شرف. و يجب أن يعرفنا الآخرون بما لدينا من خير. لا ينبغي علينا أن نتعرض بالأذى للقادمين إلى قريش. ومن يُقدم على هذا سنمنعه".

و بذلك تكوَّن حلف الفضول. وكان مكاناً للناس الذين لا يحبون الظلم. من أجل ذلك أخذ محمد ﷺ مكانه بين هؤلاء القوم الصادقين الرحيمة قلوبهم، وكان لا يزال في بداية الشباب. و لكنه ظل بدءً من ذلك الوقت يفعل كل ما في وسعه حتى يمنع الظالمين. لهذا السبب نال حب الناس أجمعين.



شاب حسن الخُلق

أصبح محمد ﷺ شاباً يافعاً.

كان جميل الخُلق والخِلقة.

كان النّاس يثقون به، ويستأمنونه على أموالهم.

عمل محمد ﷺ بالتجارة. وكان يجول البلدان بلداً بلداً، يبيع ويشتري البضائع. وتُعد صفة الصدق من الصفات المهمة للغاية في عمل التجارة.

ولكن بعض البائعين لا يلقون لهذا بالاً، فيخدعون النّاس و يجعلون المال الذي سيأخذونه مبلغ همهم.

لم يكن هناك أناس في الدنيا يشبهون محمداً ﷺ.

فالإنسان لا يراعي حق الآخرين، وكل شخص لا يفكر إلاّ في نفسه فقط.

أما محمد ﷺ فكان يهتم كثيراً بالعمل الذي يؤديه.

ويلتزم الصدق في بيعه وشراءه، فلا يتعمد خداع أحد.

و لم يتبع الحِيَلَ حتى يكسب مال أكثر. كما لم يحاول أن يُظهر بضاعته أفضل مما ينبغي.

و لم يُخسر الميزان، بل كان على العكس من ذلك يهتم بأن يعطي كل ذي حق حقه.

لهذا السبب كسب ثقة الناس وهو ما يزال في سن الشباب.

حيث كان النّاس يسعدون من المتاجرة معه بيعاً أو شراءً.

أصبح محمد ﷺ معروفاً من الجميع حيث كان مثل الشمس التي تنشر أشعتها في كل مكان في عصر قلَّتْ فيه معاني الصداقة، والثقة، والأخوة.

كان محمد ﷺ بأخلاقه قدوة حسنة للنّاس. فمن جاوره وجد عنده الطمأنينة.

لهذا السبب طلب الكثير من الفتيات الزواج منه. و لكن محمداً ﷺ لم يكن يفكر في الزواج. فلم يكن لديه من الإمكانيات المادية ما يؤهله لذلك.

فقد كان يعطي عمه معظم الأموال التي كان يكسبها. وينفق ما تبقى منها لِتَلْبِية حاجاته الشخصية. ولَم يكن يحب الإسراف، والتباهي.

كان سيدنا محمد ﷺ محبوباً بين أصدقائه أيضاً.

لا يجرح مشاعر أحد.

ولا يتحدث عن شخص في غيابه، كما لا يتحدث عن عيوبه أمامه.

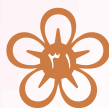
بل كان إذا رأى سلوكاً سيئاً من أحد يحذره بلطف.



لم يكن محمد ﷺ يقول الكذب، ولَم تربطه صداقة بالكذابين.

و كان إذا وعد، فعل كل ما في وسعه ليفي بما وعد.

لقد كسب محمد ﷺ محبة الجميع قبل أن يصير نبياً حتى صارت الأمهات في مكة يتخذْنَ من أخلاقه الحميدة نموذجاً لأطفالهن كي يفعلوا مثله.



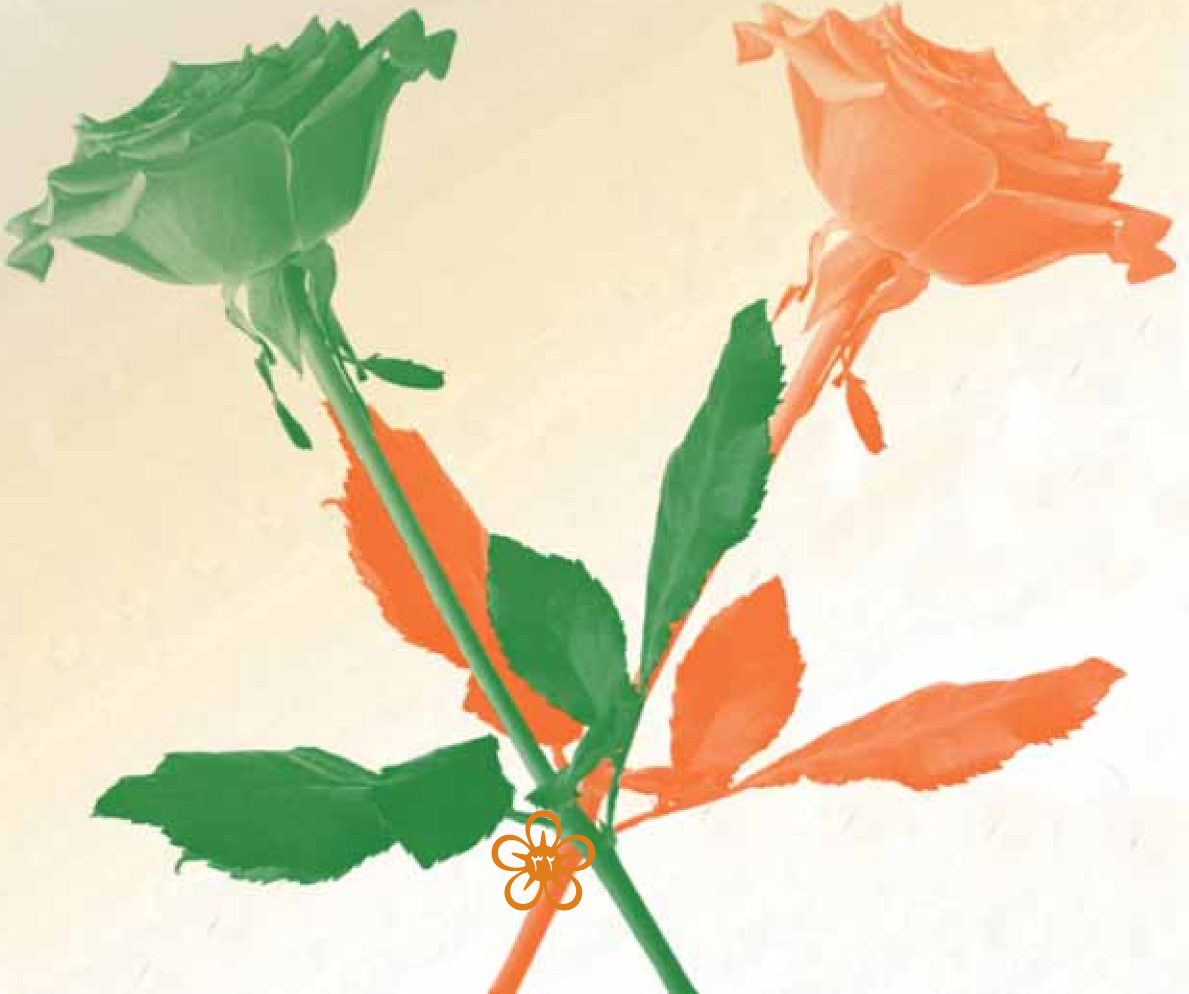
البيت السعيد

كان في قريش سيدة تُسمى خديجة. وخديجة هي ابنة لعائلة شريفة غنية. بالإضافة إلى ما تتمتع به من جمال. توفي زوج خديجة، ولهذا السبب عاشت أياماً صعبة . أراد الكثيرون في مكة الزواج من خديجة. ولكن خديجة كانت ترفض كل من يتقدم للزواج منها.

وفي يوم من الأيام جهّزت خديجة قافلة تجارية. وكانت هذه القافلة ستتوجه إلى بُصرى في الشام. لهذا كانت خديجة تبحث عن شخص أمين ترسله على رأس هذه القافلة. وكانت خديجة قد سمعت كثيراً عن صدق محمد ﷺ. فعقدت معه اتفاقاً كي يقوم بنقل بضاعتها وبيعها لها. وأرسلت خديجة عبدها ميسرة مع محمد ﷺ كي يقدم له العون في عملية البيع والشراء.

انطلقت القافلة، ظل ميسرة ملازماً لمحمد ﷺ. و لم يكن في القافلة أشخاص آخرون. قطع الاثنان رحلة طويلة مرهقةً للغاية. لم يتعرض محمد ﷺ طوال هذه الرحلة بالأذى لأحد، و لم يحزن منه أحد. بل كان يعامل الناس معاملة فيها رفق و لين. كان ميسرة يرقب محمداً ﷺ بانبهار وبإعجاب كبير.

لم يتغير الوضع حتى عندما وصلا إلى بُصرى. فمحمد ﷺ لا يخدع أو يغش أحداً في بيعه و شرائه، و لا يكذب في حديثه. بل كان يتدبر أموره بشكل جميل، الأمر الذي جعل احترام ميسرة له يزداد.



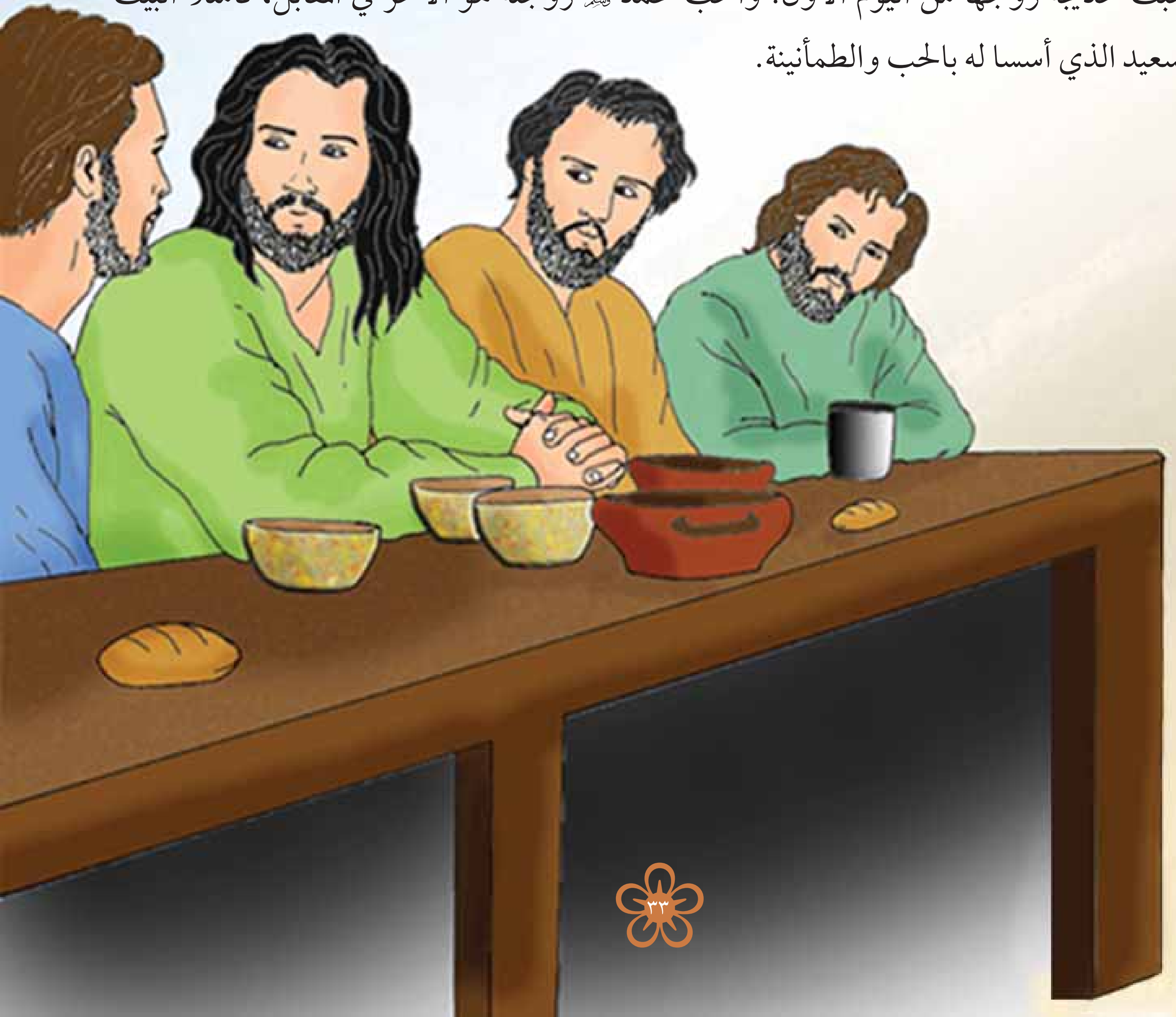
انتهى البيع و الشراء، وعادت القافلة إلى مكة. باع محمد ﷺ كل ما نقل من بضائع، وأعطى خديجة المال.

أمّا ميسرة فأخذ يقص على خديجة كل ما بدر من محمد ﷺ من سلوك حميد أثناء الرحلة. تأثرت خديجة للغاية مما سمعت. وولد في قلبها حب محمد ﷺ. تحدثت خديجة إلى أحدى أقربائها عن رغبتها في الزواج منه. تُرى هل سيقبل محمد ﷺ بهذا الأمر؟

أخذت الأمور بعد هذا تسير إلى الأمام بسرعة. فقد ذهب الذين قاموا بالوساطة في هذا الأمر إلى أبي طالب، وأفصحوا له عن رغبة خديجة في الزواج من محمد ﷺ. فكر أبو طالب في الأمر؛ فخديجة سيدة ذات أصل و نسب، وهي صادقة ثرية.

لأجل هذا رأى أبو طالب أن زواج محمد ﷺ منها أمر مناسب، وقرر أن يُحدث محمداً ﷺ في الأمر. تحمس محمد ﷺ لهذا العرض الذي اعتبره عمه ملائماً. و قبل أن يتزوج بخديجة.

تزوج محمد ﷺ بالسيدة خديجة. وكان عُمْر خديجة حينها أربعين سنةً، أما محمد ﷺ خمس وعشرون. أحبت خديجة زوجها من اليوم الأول. وأحب محمد ﷺ زوجته هو الآخر في المقابل، فامتلأ البيت السعيد الذي أسسا له بالحب والطمأنينة.

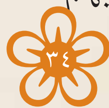


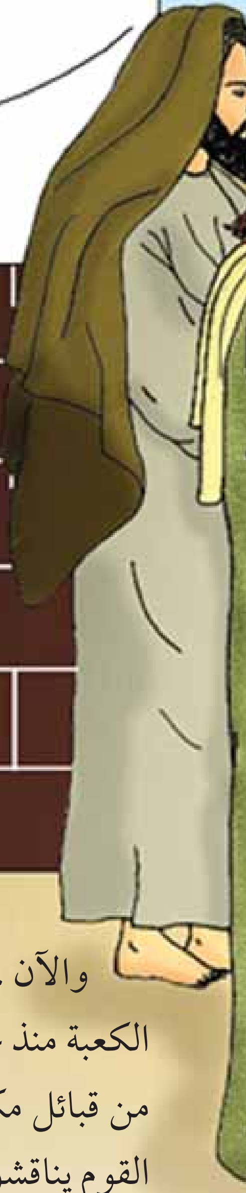
شخصٌ يثق الناس به

مرت السنوات... و بلغ محمد ﷺ سن الخامسة و الثلاثين. في تلك السنوات تعرضت الكعبة لسيل قوي، أصابها الضرر بسببه. فتآكلت جدرانها وأصبحت جدرانها على شفا الإنهيار. من أجل ذلك تحرك أهل مكة لإصلاح بيت الله. و كانت البداية عندما تجمعوا، و اتفقوا فيما بينهم عما سيقومون به. وبعد ذلك قاموا بمساعدة بعضهم البعض في حمل الحجارة، وتجهيز الملاط ليقوموا بإعادة بناء الحوائط المتآكلة من الكعبة، ثم قاموا بطلائها باهتمام.

ساهم محمد ﷺ على وجه الخصوص في إصلاح الكعبة. وبذل جهداً كبيراً مثل الآخرين.

وفي النهاية انتهت عملية إصلاح الكعبة، وأصبحت بشكلها الجديد أكثر جمالاً، وأصبحت بذلك جاهزةً لاستقبال زوّارها من كافة أنحاء العالم. كان أهل قريش يشعرون بالفخر؛ فالعيش في البلد التي توجد بها الكعبة يمثل سعادةً عظيمةً بالنسبة إليهم.



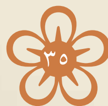


والآن لم يتبق شيء سوى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه مرةً أخرى. كان هذا الحجر الموجود في الكعبة منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، يمثل قيمةً كبيرةً بالنسبةِ إليهم. لهذا السبب كان زعيم كل قبيلة من قبائل مكة يقول نحن من سيعيد الحجر إلى مكانه. لهذا لم يُجمِعوا على قرار بهذا الخصوص. أخذ القوم يناقشون الأمر فيما بينهم، و هداهم تفكيرهم في النهاية إلى الإحتكام إلى رجل يحل هذه المسألة. و قالوا: لِيحكُمْ بيننا أول شخص يمر اليوم من أمام باب الكعبة.

اتجهت الأعين كلها صوب باب الكعبة. وبدأ كل منهم ينتظر ذلك القادم بلهفة. تُرى من سيكون أول من يمر من أمام باب الكعبة؟ لم يمر كثير من الوقت عندما ظهر محمد ﷺ أمام الباب. ودخل بوجهه الباسم إلى الداخل. و ألقى السلام على الجميع. شعر أهل مكة بالسعادة لكون أول من يمر من أمام باب الكعبة هو محمد ﷺ، و صاحوا:

- الأمين، الأمين. والأمين هو الشخص الذي يأمنه الناس على ما لديهم.

قص أهل مكة الأمر على محمد ﷺ، الذي طلب منهم أن يأتوه على الفور برداء كبير. وبالفعل لبّى القوم طلبه، و جاؤا إليه بالرداء. و قام هو برفع الحجر و وضعه فوق الرداء المبسوط على الأرض. ثم جعل زعيم كل قبيلة يمسك بطرف من الرداء ليحملوا جميعاً الحجر بعد ذلك بدقة واهتمام. و قام محمد ﷺ برفع الحجر عند الكعبة، وأعاده إلى مكانه. و بذلك يكون محمد ﷺ بتفكيره الذكي العادل قد تمكن بسهولة من التوصل لحل موضوع مهم تنازع القوم بسببه.



اقْرَأْ!

كان محمد ﷺ قد بلغ الأربعين من العمر. و كان قد تزوج من خديجة، وأنجب منها أربعَ بنات؛ هنَّ زينب، و رقيه، و أُم كلثوم، و فاطمة...

كانوا يعيشون في سعادة. و لم يكن في العائلة مكان للشرور. فكل واحد منهم يبادل الآخر الحب، ويُكِنُّ له الإحترام. ومن جهة أخرى كانت أعداد كبيرة من أهل مكة يعيشون حياة لهو. كانوا مستمرين في ظلمهم. يخدع كل منهم الآخر، يحتقرون بناتهم، ويسيئون معاملة نسائهم.

أما محمد ﷺ فكان يحزن كثيراً لما يراه من حال قومه. لهذا السبب كان كثيراً ما يلجأ إلى جبل النور حيث يوجد غار حراء. فيجلس في هذا الغار يتفكر ويشعر بالطمأنينة بابتعاده عن الناس و شرورهم. كان يظل هناك في بعض الأحيان حتى المساء يقضي وقته داعياً الله عَزَّ وَجَلَّ.

و في يوم من الأيام و بينما محمد ﷺ في الغار منغمس في التفكير، حدث شيء غريب. فقد بدا هذا اليوم مختلف عن باقي الأيام الأخرى. و قد بدأ الاختلاف نفسه في داخل الغار كذلك. فقد انتشر في الغار ما يشبه الرائحة الجميلة.

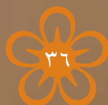
و بينما محمد ﷺ على ذلك، إذ بالغار قد أضيء. وبدا وكأن في كل ناحية به كرة من النور.

لم يفهم محمد ﷺ سبب ما حدث. فشعر بالخوف.

في تلك الأثناء لاحظ من وسط النور أحد الأشخاص.

كان جبريل عليه السلام. قدجاء بأمر من الله عَزَّ وَجَلَّ.

جاء ليبشر محمد ﷺ بالنبوة.



و يسوق إليه أمر الله ﷻ الأول: – اقْرَأْ!

فرد عليه محمد ﷺ قائلاً:– ما أنا بقارئ!

فردد عليه جبريل ثانية: – اقْرَأْ!

فرد عليه محمد ﷺ: – ما أنا بقارئ!

فقال له جبريل للمرة الثالثة: – اقْرَأْ!

فرد عليه محمد ﷺ، و قال: – و ماذا أقرأ؟

في هذه المرة قال جبريل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ...﴾

كانت هذه أول الآيات نزولاً في القرآن الكريم؛ وكانت أولى أوامر الله ﷻ للنّاس. يُطلق على الأخبار التي يرسل بها الله ﷻ إلى نبينا ﷺ اسم **"الوحي"**. وجبريل هو ملك الوحي. أما محمد ﷺ فنبي.

أخيراً سيجد الظلام الذي ساد الأرض نهاية بجهود نبينا ﷺ. فهو النبي الفقير، الضعيف، اليتيم. الرحيم، الرءوف. هو النبي الذي لم يتعرض لأحد بأذى.

و لم يحب الظلم. بل كان يحكم في كل زمان ومكان بالحق والعدل. فهو قدوة اصطفاها الله ﷻ من بين الناس. إذن سيجد الظالمون نهاية لظلمهم، و ستجد الدنيا الأمان تحت قيادة هذا النبي الجديد.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ!

ظل نبينا محمد ﷺ تحت تأثير الخبر الأول الذي يأتيه من الله ﷻ. كان يرتعد من شدة الخوف. من سيفهمه لو قَصَّ عليه ما رأى؟ أو من سيصدقه مِن الأساس؟

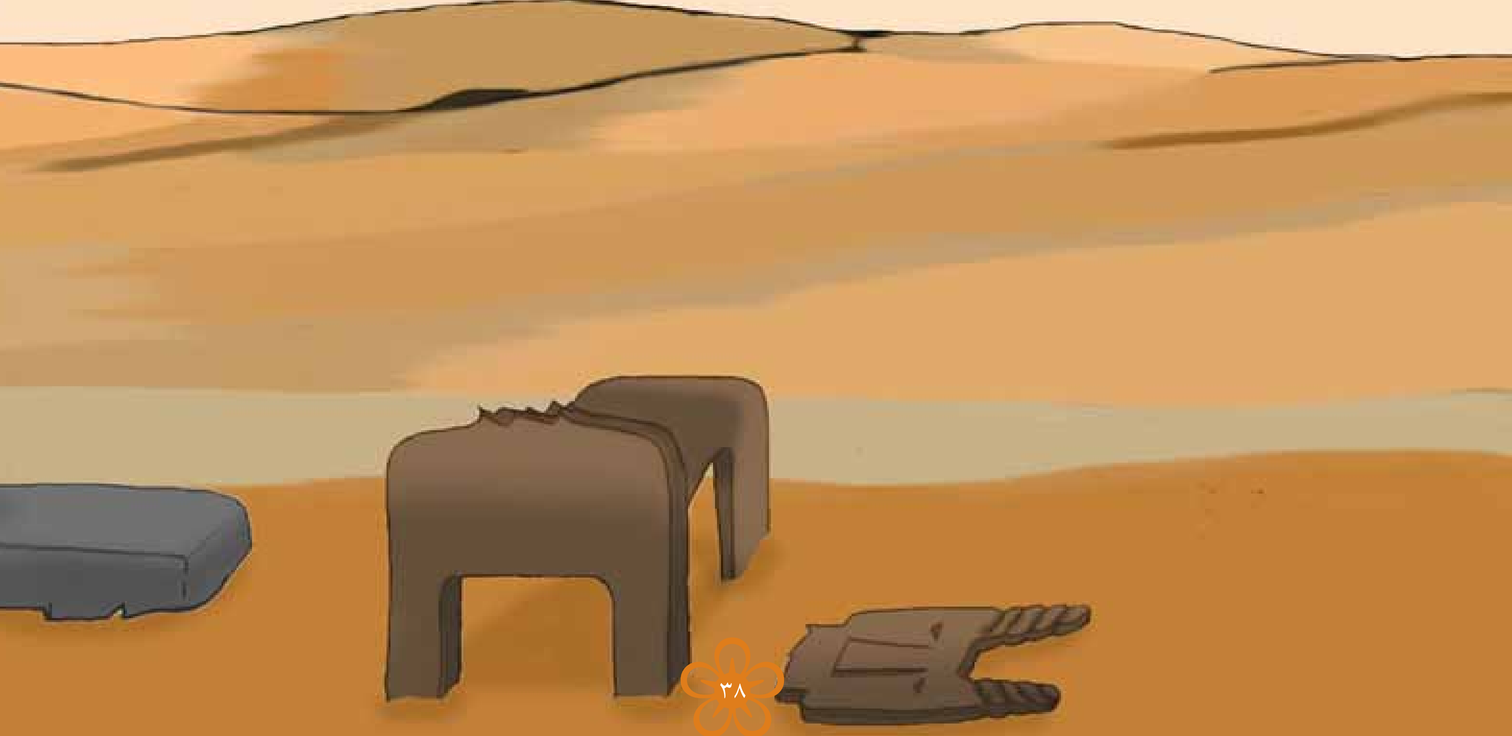
خرج نبينا ﷺ من الغار، وذهب إلى بيته مسرعاً حيث كانت زوجته خديجة هناك. بدا محمد ﷺ شخصاً آخر. فلم تره خديجة على هذه الحال من قَبل. كان ذابلاً منهكاً للغاية.

استجمع نبينا ﷺ رباطة جأشه مرةً أخرى. وأخذ بعد مدة يَقُصّ ما حدث على زوجته التي أخذت تتابعه بعينين حزينتين. لم تشهد خديجة رضي الله عنها أن محمداً ﷺ قد قال كذباً قطُّ. وكانت تثق به ثقة عمياء. نظرت خديجة إلى النبي بحب، وقالت له:

- أنا أصدقك، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتَقْرى الضَّيف، وتُعين على نوائب الحق. وتساعد الفقراء. إن ما رأيته لم يكن سوى مَلَكٍ. أنت أيضاً رسول الله.

قامت السيدة خديجة رضي الله عنها بعد ذلك باصطحاب نبينا ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. وكان ورقة رجلاً حسناً يعرف الله ﷻ جيداً. وكان شيخاً كبيراً في السن. فلما استمع ورقة إلى نبينا، ساق له البشارة قائلاً:

- إنها البشرى يا محمد، و الله إنك خاتم الأنبياء الذي بشر النبي عيسى عليه السلام بقدومه. وأن الملك الذي رأيته هو جبريل. شعر نبينا ﷺ بالراحة قليلاً.



مرَّ على الوحي الأول مدة قصيرة. وبينما نبينا عائد من غار حراء، إذ به يسمع صوتاً. و ما أن رفع رأسه إلى السماء حتى أبصر جبريل. فشعر مرة أخرى بالانفعال. فذهب على الفور إلى بيته، وقال لزوجته:- دثّريني....

قامت السيدة خديجة ﵂ بِشَد الغطاء فوق نبينا ﷺ. ولم يمض وقت طويل حتى جاء جبريل ﵇ بالآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرْ﴾

سار سياق الآيات على هذا النحو، فالخالق العلي يبين لنبيه الحبيب الطريق الذي سيتبعه. أما محمد ﷺ فأصبح على علم بما يجب عليه القيام به. فرسول الله المبارك سيقوم بإبلاغ الناس آياتِ القرآن الكريم، و يعلمهم ما جاء فيها.

و بذلك تخرج الإنسانية التي قبعت في الظلام إلى النور. بيد أن التحدث مع الناس الذين تعودوا على فعل الموبقات لن يكون بالأمر الهين.

من أجل هذا كانت تنتظر الرسول أيام عصيبة. ولكنه لن يكون وحيداً في هذا الأمر. فالله ﷻ معه يساعده لأن الله ﷻ لا يترك عباده الذين يتوكلون عليه، و يطلبون منه العون بلا مساعدة.

الدعوة إلى دين الله سراً

أصبح محمد ﷺ نبي الله ﷻ. ولكن كيف سيقنع النّاس بذلك. كانت السيدة خديجة ﵂ وبناته الحبيبات إلى جواره. يؤمنون به ويصدقونه.

وعليٌّ الصغير ابن عمه أبي طالب... هو الآخر يحب محمداً ﷺ كثيراً، ويتردد عليهم كثيراً.

وفي يوم من الأيام جاء علي ﵁ إليهم من جديد. فلما دخل رأى النبي ﷺ وزوجته يصليان! لم يكن علي ﵁ قد تجاوز العاشرة بعد. فسأل بشغف:

- ماذا تفعل يا عماه؟

أخذ نبينا ﷺ علياً ﵁ إلى حضنه، وضمه إليه، ثم قال:

- أؤدي أمر الله يا علي. لأن الذين يعبدون الأصنام لا يجنون من عبادتها أي شيء. أنا عبد الله ورسوله. أنت أيضاً إِلْحق بنا يا علي!

فكر علي قليلاً، ثم قال:

- لا يمكنني أن أتخذ قراراً في هذا الشأن الآن. فينبغي سؤال أبي قبل أي شيء.

ولكن النبوة كانت قد جاءت النبي ﷺ حديثاً. ولم يعلم بهذا الأمر سوى عدد قليل. فقال له نبينا:

- ينبغي عليك أن تقبل بهذا الأمر الآن. فإذا رددته فلا تخبر أحداً بما رأيت.

فكر علي ﵁ للحظات، وقال:

- لم يسأل الله أبي وهو يخلقني! فلماذا أسأل أبي حتى أصبح مسلماً؟

وبذلك أصبح علي ﵁ أول من يؤمن من الصبيان.

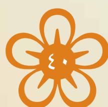
علم أهل مكة من الوجهاء أن نبينا ﷺ يدعوالناس سراً للإسلام،

وغضبوا لهذا غضباً شديداً. وكان أبوجهل على رأس هؤلاء القوم.

أما أبوبكر ﵁ فكان أقرب أصدقاء النبي ﷺ إليه. وقد لازمه منذ الطفولة.

وفي يوم من الأيام تحدث أبوجهل إلى أبي بكر ﵁، وقال:

- ما الذي يقوله صديقك؟



إنه لا يؤمن بدين آبائنا. اذهب إليه وتحدث معه!

جاء أبوبكر ﵁ إلى نبينا ﷺ. واستمع من نبينا بشأن ما قاله أبوجهل. لم يتردد أبوبكر ﵁ في النطق بالشهادة على الفور.

وبذلك تشرف أبوبكر بدخول الإسلام. يُقصَد بكلمة الشهادة قول:

" أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله "

أما معناها فهوأنني أشهد وأقر بأنه لا وجود لأي إله آخر غير الله ﷻ،

وأن محمداً ﷺ هوعبد الله ورسوله. والشهادة هنا بمعنى القبول والإقرار. أي أن كلمة الشهادة هي المرادف لكلمة الإقرار.

لقد سعد نبينا محمد ﷺ للغاية بدخول أبي بكر ﵁ الإسلام. فأقرب الأصدقاء إليه أصبح الآن أخاً له في الدين.

كان نبينا ﷺ يتحدث عن الإسلام سراً إلى الأشخاص الذين يثق بهم. حتى بدأ الناس في مكة يسمعون بأمر دين الله ﷻ رويداً رويداً.

نداء من فوق جبل الصفا

أنزل الله ﷻ بعد فترة الآية الكريمة: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }. أراد الله ﷻ من نبيه أن يدعو الناسَ للإسلام جهرةً. و بذلك تكون فترة الدعوة للإسلام سراً قد انتهت. كان نبينا ﷺ يريد أن يدعو كل شخص لدين الله بلا خوف. ولكن نزول هذه الآية {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } جعل الرسول يشعر بالقلق. لأن من بين عشيرته وأقاربه من يناصبونه العداء. و على رأسهم أبو لهب.

و لكن أمر الله كان أكثر أهمية من كل هذا. و لم يكن ليؤخر. فتحرك نبينا على الفور. فكر أن يجمع أقاربه في مكان ما و ينذرهم. فقام بالصعود فوق جبل الصفا، و نادى فيهم قائلاً:

"يا بني عبد المطلب يا بني فهر أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أصدقتموني؟"

فرد عليه أهل قريش و قالوا: – نصدقك. لأننا لم نعهد عليك كذباً قط.



فقال لهم رسول الله بصوت ندي:

فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً.

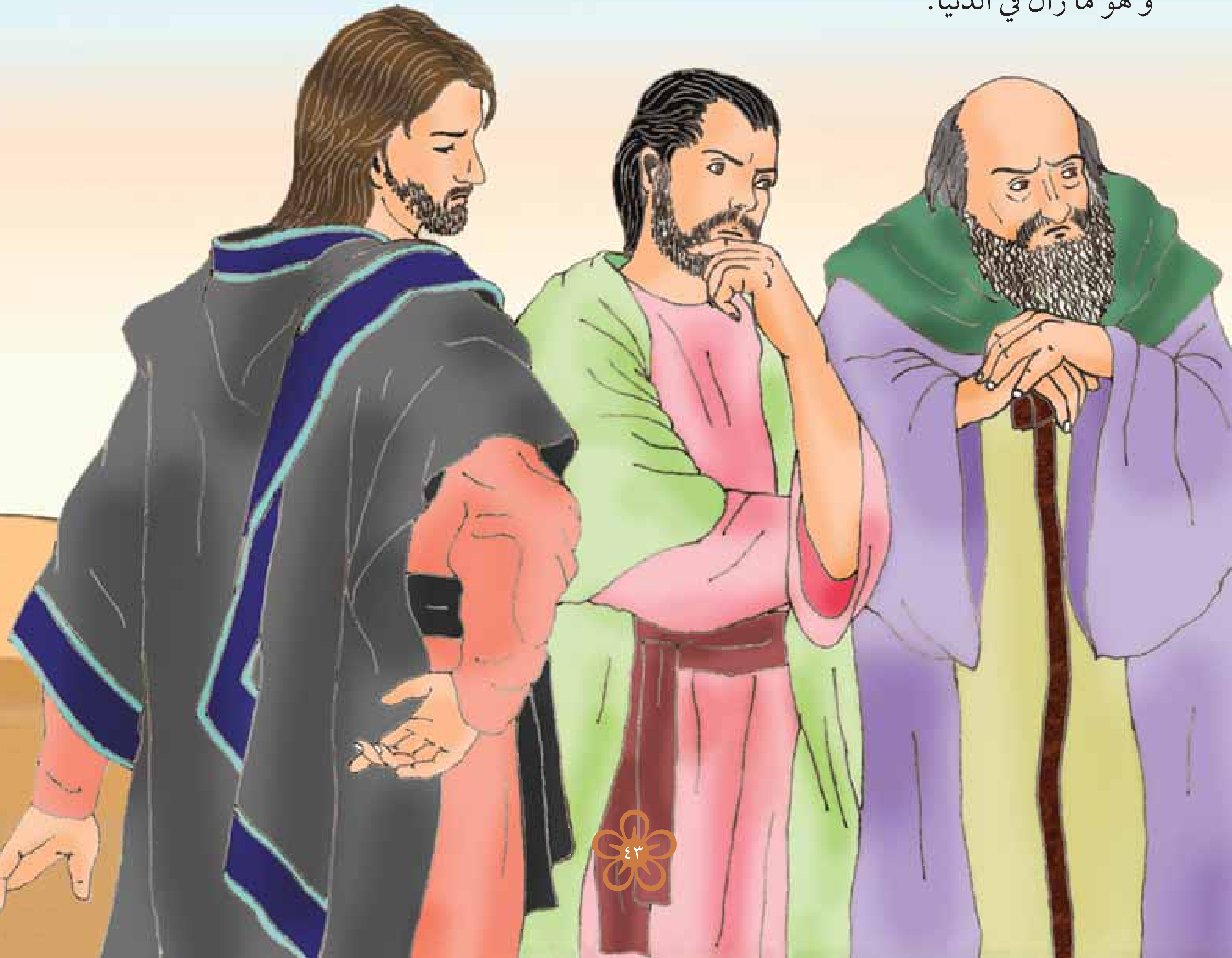
كان الناس يستمعون إلى نبينا باهتمام. نظر كل منهم إلى الآخر. كان بعضهم يشعر بالدهشة، و البعض بالقلق، والبعض الآخر بالحماسة. كان واضحاً أنهم تأثروا للغاية من حديث محمد ﷺ معهم الذي قال فيه أنه نبي الله.

و لكن عم نبينا أبا لهب لم يكن سعيداً على الإطلاق من هذا الموقف. و أندفع أمام الناس بغضب، و صاح قائلاً:

- تباً لك سائر اليوم، ما دعوتنا إلاَّ لهذا؟

من أجل هذا أنزل الله ﷻ قرآناً في أبا لهب بقوله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

كانت عاقبة من لم يؤمنوا برسول الله سيئة للغاية. فقد أخبر الله ﷻ أن أبا لهب سيصلى نار جهنم و هو ما زال في الدنيا.





لم يرجع عن دينه

كان اسم "المشركون" يُطلق في مكة على الذين لا يعتنقون الإسلام، ويعبدون الأصنام. كان هؤلاء الأشخاص يقبلون بوجود الله ﷻ، ولكنهم لا يسلمون بوحدانيته. من أجل هذا كانوا يقولون:

"نعبد الأصنام لتكون وسيلة تقربنا إلى الله، وبفضل الأصنام نُسمِع أصواتنا إلى الله"

بيد أن الله ﷻ يرى و يسمع عباده في كل مكان وزمان. يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. من أجل هذا أُطلق مُسمى "الشرك " على وضع شيء في مرتبة واحدة مع الله ﷻ. والذين يشركون مع الله أحداً هُم المشركون.

كان نبينا مستمر في التعريف بالإسلام على الرغم من كل العوائق التي وضعها المشركون. من أجل هذا كان الإسلام ينتشر بمرور الوقت. حتى العبيد بدؤا يدخلون هذا الدين. لأن الناس سواسية فيه. لا فضل لأحد على الآخر.

و لكل فرد الحق في أن يعيش حراً في إطار حياة إنسانية. وكان وجهاء مكة يقولون ما هو عكس ذلك؛ و تمادوا في قولهم:

"نحن أفضل، ولا نقبل أن يُساوي بيننا و بين العبيد"

كان بلال ؓعبداً لأُمية وكان أحد الذين اعتنقوا الإسلام. ولكن أُمية كان واحداً من الذين يكرهون المسلمين. من أجل هذا كان يتوجه إليهم بالأذى في أي مكان يراهم فيه.

و في يوم من الأيام علم أُمية أن بلالاً اعتنق الإسلام. غضب أُمية لهذا غضباً شديداً. وذهب إلى بلال، و تحدث إليه قائلاً:

- هل حق ما سمعت؟ هل اعتنقت الإسلام حقاً؟

كان بلال هادئاً، شجاعاً و هو يرد عليه قائلاً:

- نعم، أصبحتُ مسلماً.

تعجب أمية كثيراً. كيف يرفع عبد رأسه بهذا الشكل و هو يتحدث مع سيده؟ من أين له بهذه الجرأة؟ ما طبيعة هذا الدين؟ كيف لعبد أن يتحدث بهذا الشكل؟ اكفهر وجه أمية من شدة الغضب. و بدأ يجر بلالاً على الأرض بلا رحمة.

كانت رمال الصحراء شديدة الحرارة كأنها فرن متقد. كان الرمال تحرق ظهر بلال ﵁، أما أُمية فلم يبالي بذلك وظل يتقدم وقيد يديه وقدميه. وكأن هذا ليس بالأمر الكافي، فقام بوضع صخور ضخمة متوهجة بالحرارة فوقه.

ولكن كل هذا لم يفلح في إرجاع بلال ﵁ عن رأيه. لم يجبره على الإرتداد عن دينه. فكان مع آلامه يقول:

"الله واحد! محمد ﷺ رسوله".

و كان كلما قال ذلك، جن جنون أُمية واشتعل غضباً. لم يعد لدى بلال قوة على التحمل. ولكنه ظلَّ على الرغم من هذا يقول: " **أحدٌ...أحدٌ**".

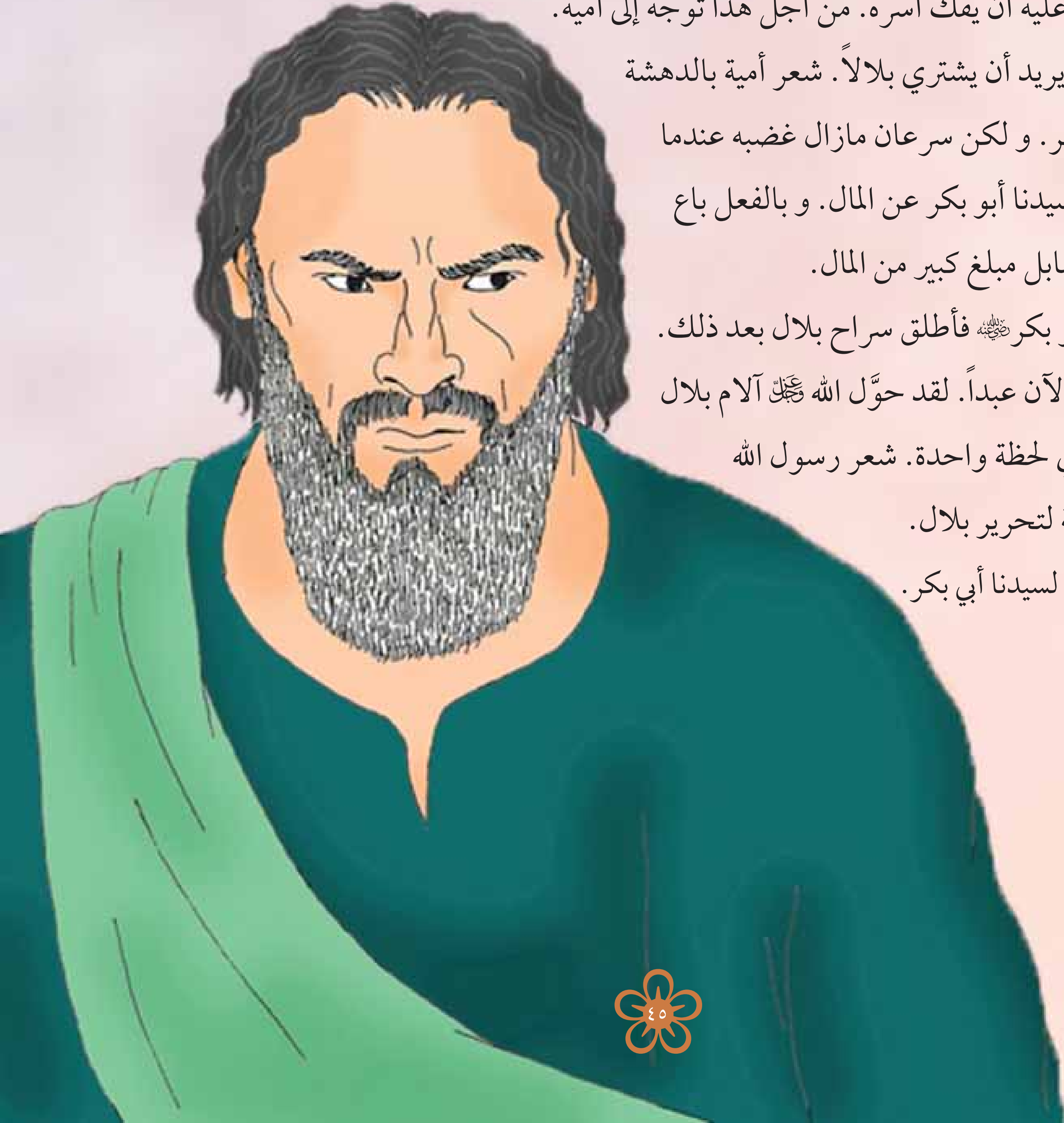
لم يتحمل سيدنا أبو بكر ﵁ الحالة التي تعرض لها صديقه بلال. فقد كان هو السبب وراء إسلامه. والآن يجب عليه أن يفك أسره. من أجل هذا توجه إلى أُمية.

و قال له أنّه يريد أن يشتري بلالاً. شعر أمية بالدهشة في بادئ الأمر. و لكن سرعان مازال غضبه عندما تحدث معه سيدنا أبو بكر عن المال. و بالفعل باع أُمية بلالاً مقابل مبلغ كبير من المال.

أما سيدنا أبو بكر﵁ فأطلق سراح بلال بعد ذلك.

لم يعد بلال الآن عبداً. لقد حوَّل الله ﷻ آلام بلال إلى سعادة في لحظة واحدة. شعر رسول الله بسعادة بالغة لتحرير بلال.

و دعا الله ﷻ لسيدنا أبي بكر.



لن أترك هذا الأمر

عجز المشركون عن الوقوف أمام تقدم الإسلام. فلم يتركوا طريقاً أُتيح لهم إلا و سلكوه. ولَم يتركوا مسلماً إلاّ و قاموا بإيذائه. لم تأخذهم الرحمة بأحد، وكانوا يقتلون بعض المسلمين. وعلى الرغم من كل شرورهم، كان الإسلام ينتشر بسرعة.

و بينما المشركون في ذلك، خطر ببالهم سبيل آخر. فقد قرروا فيما بينهم أن يذهبوا إلى عم نبينا ﷺ كي يشكوا إليه، وفي يوم من الأيام توجه القوم إلى أبي طالب و قالوا له:

"يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة، ولكن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وعقولنا، و لم نجد أحداً غيرك يثنيه عن رأيه. فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه".

كان أبو طالب يخشى أن يصيب ابن أخيه السوء. فأرسل إلى المشركين مرة أخرى ليهدأ من روعهم. وقام في الوقت نفسه بإخفاء الأمر عن نبينا ﷺ حتى لا يحزن. ولكن لم يلبث المشركون أن اجتمعوا من جديد، وجاءوا إلى أبي طالب. وأصروا على تحذير نبينا ﷺ.

لم يكن أبو طالب يرغب في جرح مشاعر ابن أخيه الذي أحبه كثيراً. ولكنه لم يجد مفراً من أن يقص عليه الأمر. فجاء إلى نبينا ﷺ، و تحدث معه قائلاً:



- أي ابن أخي، أَبْقِ عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، وارجع عن هذا الأمر.

كان نبينا ﷺ يَكِنُّ لعمه الحب. فقد تربى في بيته وكبر. ولكنه ما كان ليترك الدعوة إلى الإسلام مهما كان الشخص الذي أمامه. تحدث النبي إلى عمه بلين، وقال:

-"يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته أبداً"

فهم أبو طالب الأمر. فقد حمل ابن أخيه مهمة بالغة الأهمية. و قد أراد أبو طالب نفسه أن يتحول إلى الإسلام. و لكنه لم يستطع أن يترك دينه القديم. كما أنه كان يحمي بن أخيه. تحدث أبو طالب إلى نبينا قائلاً:

- يا ابن أخي؛ اذهب، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيءٍ أبداً.

شعر المشركون بضجر شديد مما حدث. وكان لا بد لهم أن يجدوا سبيلاً آخر. ففكروا فيما بينهم قائلين: "ماذا لو رمينا محمداً ﷺ بجرم؟ ".

حاول المشركون أن يقولوا أنّ محمداً ساحر يخدع الناس بسحره. ولكن من يستمع إلى ما ذهبوا إليه؟ فقد كان الجميع يعلمون أن محمداً ﷺ لا يقول الكذب. ولا يجرح مشاعر أحد. ولم يفكر في أذى أحد. فلا هو بساحر يخدع النّاس بسحره، و لا شاعر حلو الحديث...، وكل ما في الأمر أنه رسول الله. يدعو النَّاس إلى دين الله ﷻ وإلى الإسلام العظيم



مسلمو الدعوة

صار بقاء المسلمين في مكة أمراً أكثر صعوبةً بعد كل ما يفعله المشركون معهم. وأصبحت أرواح المسلمين وأموالهم في خطر. من أجل هذا كان نبينا ﷺ يشعر بحزن شديد هو الآخر. وكان يريد للمسلمين أن يتخلصوا من هذا الوضع الخطير. لهذا كان يدعو لهم، ويطلب العون والمدد من الله ﷻ.

وفي النهاية جاء القرار: يمكن لكل من أراد من المسلمين أن يتوجه إلى أرض الحبشة، وهناك يمكنه أن يعيش فترة من الزمن. لأن في الحبشة ملك عادل.

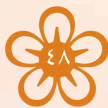
وكان أهل الحبشة يطلقون على ملكهم اسم"**النجاشي**". كان هذا الرجل لا يُظلم عنده أحد، وكان يعمل ليعيش قومه في سعادة.

كان النجاشي رجلاً حسناً. وكان مسيحياً يؤمن بعيسى عليه السلام. كان النجاشي يعامل الناس معاملةً حسنةً، ويُكرم من يتوافدون على بلاده.استأذن اثنان وتسعون شخصاً من مسلمي مكة من نبينا ﷺ، وخرجوا قاصدين أرض الحبشة. خرجوا مهاجرين إلى الحبشة.

و"الهجرة": هي اسم يُطلق على السياحة في الأرض حتى يمكن لدين الله أن يحيا. وها هم المسلمون يسيحون في الأرض ويتركون بلدانهم حتى يحيا دينهم. تركوا ديارهم، وأموالهم، وأقرباءهم. وكان أكثر ما أحزنهم في هذا أنهم تركوا رسول الله ﷺ.

تُرى هل سيتمكنون من رؤيته مرة أخرى؟

أما مشركو مكة فقد ازدادوا غضباً لذهاب المسلمين. فهذا يعني أن الأشخاص الذين دأبوا على إنزال العذاب بهم و إيذائهم قد تركوا مكة سراً. وربما عمل هؤلاء على نشر الإسلام في المكان الذي سيذهبون إليه، ثم يعودون بعد ذلك إلى مكة وقد قويت شوكتهم.



من أجل هذا كان يجب عليهم فعل شيء إزاء هذا. فخرجوا هم أيضاً قاصدين أرض الحبشة، وقد عقدوا العزم على رد المسلمين مرة أخرى إلى مكة. ولكن النجاشي كان قد استقبل المسلمين في بلاده بكل محبة. وعاش المسلمون في أمن هناك. أما المشركون فذهبوا إلى النجاشي وطلبوا منه أن يرد المسلمين إليهم. ولكن النجاشي رد طلبهم، وقال لهم:

"لا يمكنني أن أرد ضيفاً لجأ لبلدي"

فعل المشركون كل ما في وسعهم حتى يؤثروا على النجاشي عندما رأوه متمسكاً برأيه. فقالوا له:

"هؤلاء المسلمون لا يحبون غير أنفسهم، ولا يبالون بأحد سواهم، كما أنهم لا ينحنون أمام أحد. استدعهم إن شأت، ولن ينحني أحد منهم حتى أمامك أنت "

وكان عدم الإنحناء أمام الملوك في هذا الزمن جُرمٌ كبير. شعر النجاشي بالدهشة بعد ما سمعه من المشركين. أما المشركون فاستمروا في حديثهم، وقالوا:

"أضف إلى هذا أيضاً أنهم لا يؤمنون حتى بالنبي عيسى كما تؤمنون أنتم"

شعر النجاشي بغضب شديد، و قال:

"آتوني بهؤلاء المسلمين "



الحُكمُ العادل

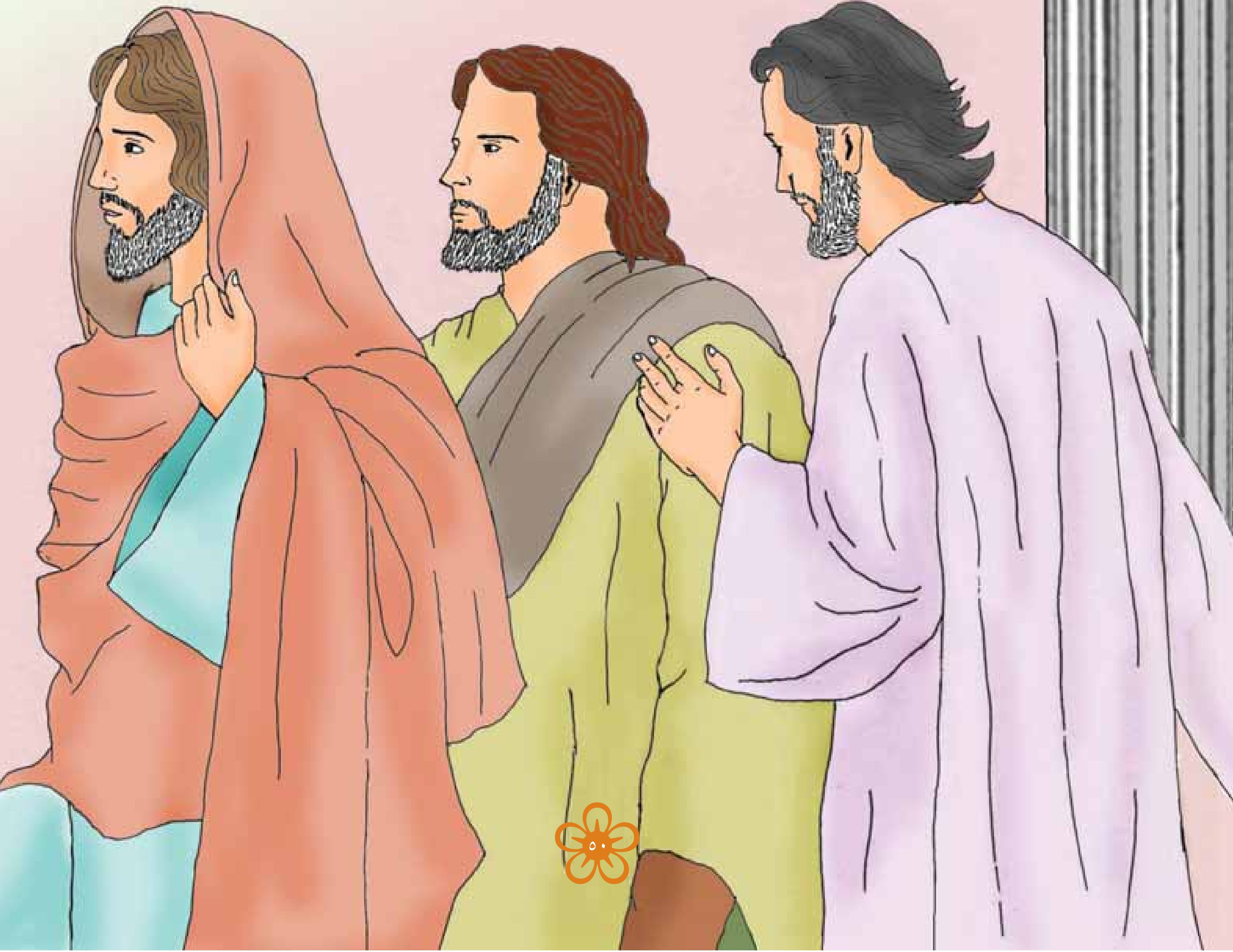
جاؤا بالمسلمين على عجل إلى قصر النجاشي. لم يستطع المسلمون فهم ما يدور. ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا الأمر عندما رأوا عند النجاشي المشركين الذين قدموا من مكة.

كان النجاشي يمعن النظر في المسلمين الذين جاءوا إليه. ولاحظ أن أحداً منهم لم ينحنِ أمامه. والحقيقة أن هذا لم يكن سوء أدب منهم.

فالمسلمون يدركون جيداً أن النجاشي ملكٌ، ويشعرون بالإمتنان له. و لكنهم لم يكونوا لينحنوا أمام شيء أو شخص خلقه الله ﷻ. فهم لا ينحنون ولا يسجدون إلاّ في حضور الله ﷻ وحده. فهم على سبيل المثال يركعون و يسجدون لله ﷻ في الصلاة... و هو دلالة على احترامهم و توقيرهم لِرَبهم ﷻ. و هذه العبادة أمر يخص الله ﷻ وحده.

التفت النجاشي إلى المسلمين، وقال:

- جاء هؤلاء القوم من مكة كي يردوكم إلى بلدكم مرة أخرى.



تحدث جعفر ﵁ و كان المتحدث عن المسلمين، وقال:

- سيدي الملك لدي ثلاثة أسئلة. أود أن يجيب هؤلاء الأشخاص عليها.

دار الحديث التالي بعد موافقة النجاشي بين أهل مكة و المسلمين:

- هل نحن عبيد لهم فجاؤا يطلبوننا؟
- لا، لستم عبيد.
- هل قتلنا أحدهم فجاؤا فيرغبون في قتل أحدنا؟
- لا، لم يقتلوا أحداً.
- هل نحن مدينون لهم، فجاءوا في طلبنا؟
- لا، ليسوا كذلك.

في هذه المرة وجه النجاشي سؤاله إلى المسلمين، وقال: حسناً، ولكن أجيبوني أنتم أيضاً، أنتم في حضرتي الآن. ويجب عليكم أن تنحنوا و تسلموا عندما تقفون أمام ملك. لماذا لم تفعلوا هذا؟

- سيدي، نحن لا نحنى إلاّ أمام الله ﷻ.
- حسناً، لدي سؤال آخر. ماذا يقول دينكم في عيسى ﵇؟



أجاب جعفر ﵁ على هذا السؤال بآيات من القرآن الكريم.

كانت هذه الآيات تحكي عن حياة النبي عيسى ﵇.

تأثر النجاشي كثيراً لدى سماعه هذه الآيات، ونهض مخاطباً المسلمين: - أقسم بالله أن ما قلتموه، هو نفسه كلام الله الذي جاء به عيسى ﵇، و موسى ﵇.

التفت النجاشي إلى المشركين وتحدث إليهم قائلاً:

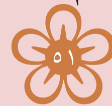
- لا داعي لإنتظاركم. فأنا لم أر سوءً فعله هؤلاء المسلمون. ولن أسلم أي منهم إليكم.

أما أنتم فغادروا مملكتي على الفور.

لم يجد المشركون ما كانوا يطمحون إليه.

و عادوا إلى بلدهم غاضبين. أما النجاشي فأكرم المسلمين في بلده بعد هذا اليوم بشكل حسن.

لقد أظهر النجاشي مرة أخري كم هو ملك عادل.



رقة شعور النبي

لم تكن الحياة في مكة سهلة بالنسبة إلى المسلمين على الإطلاق. فقد أخذ المشركون يزيدون من تعذيبهم لمن بقي من المسلمين. ولكن وعلى الرغم من هذا كله كانت أعداد المسلمين تتزايد في كل يوم يمر. وكان المشركون ثائرين لا يدرون ما سيفعلون. وكانوا يقولون:

"لم يعد أمامنا سوي حل واحد" "هو قتل محمد" ولكن أحداً بينهم لم يجرؤ على القيام بهذا الأمر.

وفي يوم من الأيام كان نبينا ﷺ يسير وحيداً، فقابله في الطريق أبو جهل و كان من رؤوس المشركين في مكة. وما أن رأى الرسول حتى انفجر يصيح فجأةً، ويلقي نبينا ﷺ بكلمات بذيئة، ويسخر منه. فتجمَّع النّاس عندما سمعوا صوت أبي جهل. و جرى البعض الآخر على الفور وأخبر سيدنا حمزة رضي الله عنه عم الرسول. غضب حمزة غضباً شديداً عندما سمع بما حدث. من يجرؤ على إهانة قريب لي؟

و كان سيدنا حمزة قد عاد حديثاً من الصيد. فلم ينزل عن فرسه، وانطلق إلى المكان الذي تجمع النّاس فيه. و ما أن رأى أبا جهل حتى سار إليه، وصاح فيه قائلاً: كيف تجرؤ على إهانة ابن أخي!

وكان في يده سهم و قوس. فرمى القوس على رأس أبي جهل فشجَّه، وبدأت الدماء تسيل منه.

شعر الناس بالخوف عندما رأوا حالة أبي جهل. و عابوا على حمزة ما فعله بعد ذلك.

و لكن أبو جهل كان شديد الذكاء. فلو عاب الناس على سيدنا حمزة رضي الله عنه ما فعله، فربما غضب،



ودخل الإسلام معانداً له. و دخول سيدنا حمزة ﵁ الإسلام من شأنه التأثير في عدد كبير من الناس. لأنه كان رجلاً قوياً للغاية و جسوراً. وكان الناس يوقرونه و يحترمونه كثيراً. من أجل هذا تحدث أبو جهل خشية إسلام سيدنا حمزة، وقال:

– حمزة على حق. لقد أسأت إلى ابن أخيه. لهذا السبب كان محقاً في ضربه لي. أنا من أخطأ لا حمزة.

أما حمزة فتوجه على الفور إلى نبينا محمد ﷺ. وكان يحبه كثيراً. وتحدث إليه محاولاً التخفيف عنه قائلاً:

– لا تحزن يا ابن أخي، لا تُلقِ بالاً بما فعله أبو جهل. لقد أوقفته عند حده. ولن يتطاول عليك مرة أخرى. أما نبينا ﷺ فلم يكن يبالي بهذا تماماً، و تحدث إلى سيدنا حمزة و قد شعر بالحزن:

– أنا لست حزيناً لنفسي يا عمي.. لو أنك آمنت بالله و رسوله لنجوت. إن ما يسعدني هو أن تكون من الناجين.

تعجب حمزة لهذا الأمر. فأي شخص آخر مكان النبي كان سيتوجه إليه بالشكر لأنه خلصه من أبي جهل. ولكن نبينا كان يفكر في عمه فقط. وأمر كهذا ربما لا ينفرد به سوى نبي فقط.

وهذا يعنى أن ابن أخيه نبيٌّ بلا شك.

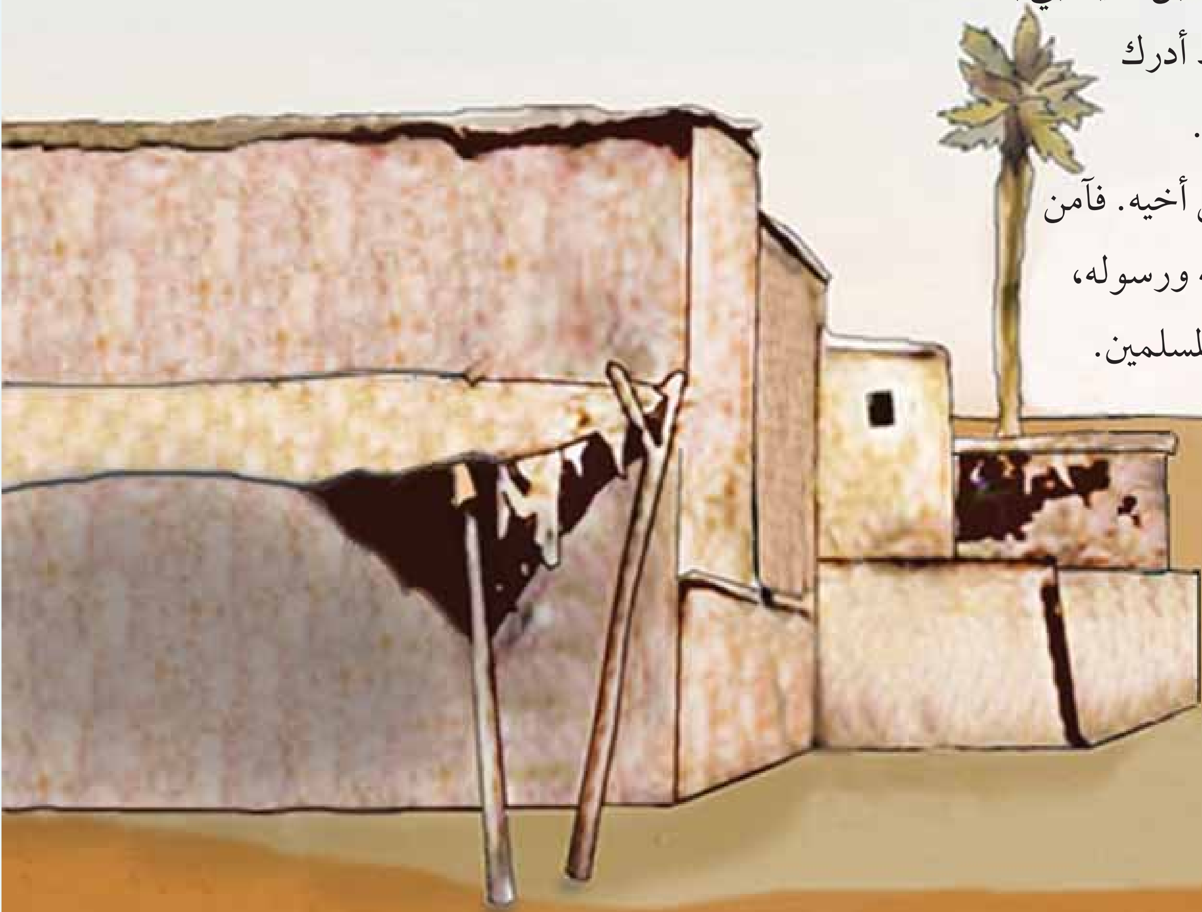
عند ذلك فقط أدرك

حمزة كل شيء.

لقد صدَّق ابن أخيه. فآمن

على الفور بالله ورسوله،

و أصبح من المسلمين.



المسلم الأربعون

كان تزايد أعداد المسلمين مدعاة لقلق المشركين. لذلك كانوا يرون ضرورة إيجاد طريقة لقتل سيدنا محمد ﷺ. ولكن من لديه الشجاعة الكافية للقيام بهذا الأمر؟ وبينما يتحدثون في هذا الأمر، صاح عمر بن الخطاب، وقال: -أنا أفعل! أنا سأقوم بقتله!. ونهض من مكانه و قد استطار غضباً. حمل عمر السيف ، واتخذ قراره. سيقتل محمداً ﷺ.

إنطلق عمر بسرعة، وفي الطريق قابل نُعَيم و كان من المسلمين. ساور نُعيم الشك من مِشية عمر الغاضبة. فقد كان واضحاً من حاله أنه مُقدم على فعل شيء سيء. فأراد نُعيم أن يعلم ما الذي ينوي عمر القيام به. فوقف أمام عمر، و سأله قائلاً:

- خيراً يا عمر، لماذا أنت غاضب إلى هذا الحد؟ إلى أين أنت ذاهب وقد تقلدت سيفك بهذا الشكل؟
- ذاهب لقتل محمد. ابتعد عن طريقي.

شعر نُعيم بالخوف الشديد. وحاول ألا يُبدي خوفه لعمر. وكان لا بد له أن يفعل شيئاً يُثني به عمر عن طريقه. تحدث نُعيم مع عمر حتى يكسب المزيد من الوقت، وقال:

- يا عمر، انظر لأمر عائلتك أولاً. فقد أسلمت أختك فاطمة، ألا تعلم هذا؟

تصاعدت الدماء إلى وجه عمر عندما سمع هذا. كيف يمكن لأخته الشقيقة أن تُغيّر دينها؟

توجه عمر بهذا الغضب إلى بيت أخته فاطمة. وعندما وقف على باب بيتها، سمع صوتاً يجيء من الداخل، كان أحدهم يقرأ القرآن.

طرق عمر الباب بشدة. ولكن أحداً لم يفتح له. فقد ألجم الخوف فاطمة. قامت فاطمة على الفور برفع صحف القرآن الكريم من المكان. وأخفوا الضيف الذي كان يقرأ القرآن في غرفة بالبيت. تغلبت فاطمة على خوفها، وفتحت الباب. اقتحم عمر البيت بعنف، و هو يسأل:

- ما الذي تفعلونه هنا؟ ماذا كنتم تقرءون عند مجيئي؟ من الذي أسلم منكما فاطمة أم أنت؟

استجمعت رباطة جأشها، و تحدثت إلى عمر قائلة:

- نعم يا أخي، لقد أسلمنا! وكنا نقرأ القرآن قبل أن تجيء إلى هنا.

تملك الغضب من عمر، ورفع يده و لطم بها وجه فاطمة بشدة. سقطت فاطمة على الأرض من شدة اللطمة، وكانت الدماء تسيل من وجهها. ولكنها لم تخضع له، بل قالت:

- افعل بي ما تريد يا عمر، و لكنك لن تنجح في إرجاعي أنا وزوجي عن الإسلام.

كان عمر يحب أخته كثيراً. ولم يكن قد رآها متصلبةً في رأيها على هذا النحو من قبل. تألم عمر لرؤيتها على هذا الشكل. فتبدد غضبه و ثورته على الفور. تُرى لماذا تتشبث أختي و زوجها بهذا القرآن إلى هذا الحد؟

لماذا يحبون محمداً ﷺ بهذا الشكل؟ غلب الفضول على عمر و هو يفكر في هذه الأمور، و تحدث مع أخته بلين لا يعهده أحد عليه: - ناوليني هذه الصحيفة التي تَقْرَئِينها.

كانت فاطمة تخشى على الصحيفة أن يمزقها عمر. قامت فاطمة بإبراز الصحيفة من المكان الذي كانت قد أخفتها فيه. بدأ عمر يقرأ الصحيفة باهتمام. لم يكن ما قرأه من آيات يشبه بأي شكل من الأشكال ما قرأه في حياته من قبل. كانت كلمات جميلة للغاية. كلمات هزَّت عمر من الأعماق. و امتلأ قلبه بالمحبة، و أضاء وجهه بالسعادة. التفت عمر إلى أخته، وسألها قائلاً:

- ما الذي يجب عليَّ فعله حتى أصير مسلماً؟

شعرت فاطمة بسعادة غامرة لما سمعته من عمر. و قالت لأخيها الأكبر:

- اذهب الآن إلى رسول الله ﷺ. و هو سوف يعلِّمك ما الذي يجب عليك فعله.

توجه عمر إلى نبينا ﷺ. شعر من كانوا على الباب بخوف شديد عندما أبصروا عمراً. وكان نُعيم قد أخبرهم بقدوم عمر. لقد ظنوا أن عمراً جاء ليقتل النبي ﷺ. ولم يكن أحد منهم ليتردد أن يضحي بنفسه ليحمي نبيه. و لكن عمر كان قوياً للغاية. و لم يكن من السهل على أحد إيقافه.

أخذ عمر رضي الله عنه يصر في رغبته أن يرى النبي ﷺ . كان صوته، وأسلوبه في الحديث ليناً. لم يعد هناك أثر لخشونته القديمة. لم يكن يشبه أحداً جاء بقصد قتل نبينا. و لكن و على الرغم من هذا لم يأذن له من بالباب بالدخول. حتى أن عم النبي حمزة، وقف، واستل سيفه و هو يقول:

- دعوه لِيأْتِ. أنا أعلم ما سوف أفعل معه.

أما نبينا فاطمأن. و لم يخف. و قال لهم أن يتركوا عمر يدخل إليه. فلما سمعوا قول النبي فتحوا له الباب مجبرين. أخذوا عمر إلى الداخل و هم يشعرون بخوف شديد. و عندما وصل عمر رضي الله عنه أمام النبي ﷺ، جثا على ركبتيه. وقال لرسول الله ﷺ وسط ذهول الحاضرين أنه يود أن يعتنق الإسلام. ظهرت السعادة على وجه نبينا ﷺ، و ساعد عمر بن الخطاب في النطق بالشهادة.

كان عمر رضي الله عنه رجلاً قوياً جداً! لقد ازداد الإسلام قوةً بإسلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. وأصبح عدد المسلمين أربعين!



وتسطع الشمس

كان عمر قد اعتنق الإسلام. وكان يشعر بأنه أكثر حماسة وسعادة. كان يشعر بنفسه أكثر قوة. فقد شرّفه الله بنور الإسلام. فأصبح أكثر شجاعة وإقداماً عن ذي قبل. فهوالذي كان يقول لرسول الله:

– يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؛ ففيمَ الاختفاء. والذي بعثك بالحق لأذهبنَّ إلى الكعبة، وأعلن عن إسلامي.

اكتفى نبينا ﷺ لدى سماعه قول عمر رضي الله عنه بالإبتسام. ولم يقل شيئاً. ثم نهض واقفاً على قدميه. وفعل مثله كل من كان هناك وعددهم أربعون شخصاً. وكان عمر رضي الله عنه على اليمين من النبي. أما سيدنا حمزة فكان في الجهة اليسرى!

كان مشركومكة مازالوا ينتظرون الخبر. كانوا يظنون أن عمراً رضي الله عنه قتل محمداً ﷺ.

وبينما هم على ذلك، بدا لهم عمر. فأصابتهم الحماسة لرؤيته. ولكنهم رأوا المسلمين أيضاً من خلفه. كان المسلمون يسيرون جميعاً يتقدمهم محمد ﷺ. وكان عمر رضي الله عنه يصيح قائلاً:

– يا أهل مكة! ها أنا ذا قد جئت.

" أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"

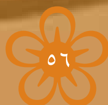
لأنني الآن أؤمن بالله الواحد. فلا يتحرك أحد من مكانه، وإلا حصدت روحه.

شعر المشركون بخوف شديد. ولم يجرؤ أحد منهم على التحرك من مكانه. وصل المسلمون حتى الكعبة. وبدؤا يصلون عندها. وكان النبي ﷺ في مقدمتهم.

أربعون مسلماُ فقط! نجحوا في إخافة المشركين.

والسبب أنهم كانوا يحبون الله عز وجل كثيراً، ويتوكلون عليه، ويثقون به. والله هوالذي يمد المؤمنين بالقوة.

المسلمون أناس يتشبثون بالأمل. ولا يصيبهم الملل قط أمام ما يلاقون



من صعاب. فهم يعلمون أن
المصاعب لا بد لها أن تنتهي
في يوم من الأيام. لأنهم وإن
كانوا قد فقدوا أرواحهم
وأموالهم، فقد ارتضوا الإسلام
بديلاً عن ذلك. وهم لا يخشون أحداً
غير الله وحده. أما المشركون فيخشون
أن يفقدوا أموالهم، وقوتهم. والحقيقة هي أن الله ﷻ وحده
هوالذي أمدهم بكل هذه الأشياء. ولكنهم كانوا يرون أنهم أصحاب
كل شيء. ولوأراد الله ﷻ لنزع كل شيء من بين أيديهم في لحظة واحدة.

إن أفضل الناس في هذه الدنيا هم الذين يؤمنون بالله ﷻ، ويحبون
رسوله ﷺ. فلا سعادة أكبر من أن يصبح المرء مسلماً.

لهذا السبب كان المسلمون في مكة هم أكثر الناس سعادةً
على الرغم مما عانوه من محن وصعوبات.

فقد أحبوا أن يكونوا إلى جوار رسول الله ﷺ أكثر من
أي شيء آخر في الدنيا.

الصبر و الإيمان

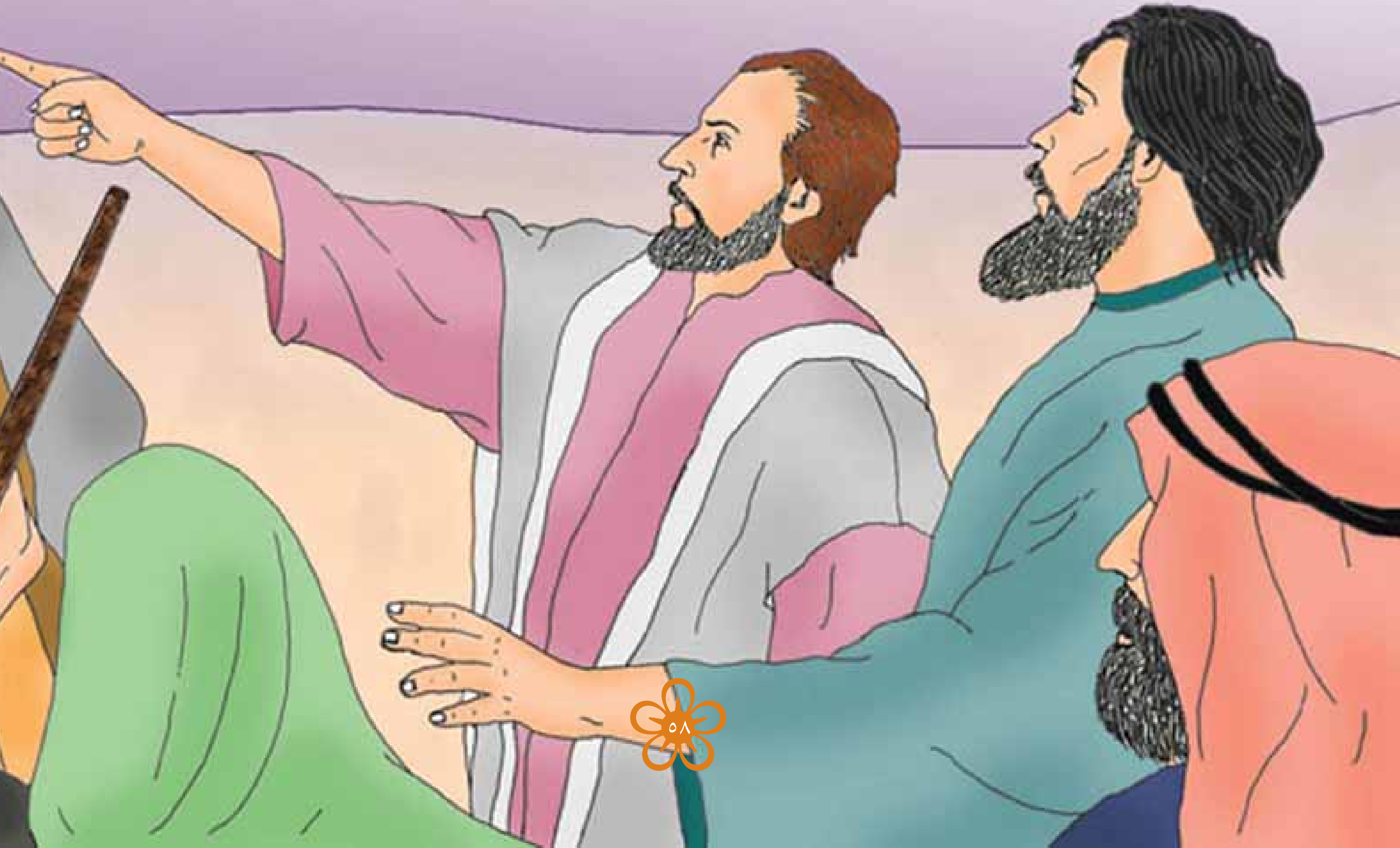
كانت قريش تشعر بالغضب. فقد أخذ عدد الذين آمنوا بمحمد ﷺ يزداد مع مرور الوقت. حتى أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وثقوا فيه كثيراً تحوَّل هو الآخر إلى الإسلام. لذا كان عليهم إيقاف هذا التنامي. ولكن كيف؟

فكر المشركون في هذا الأمر، وتوصلوا فيما بينهم إلى سلسلة من القرارات. و قالوا:

"من الآن فصاعداً لن يتزوج أحد منا من المسلمين، ولن نبيع لهم أو نشتري منهم شيئاً. لن يُقدِّم لهم أحد من بيننا طعاماً أو شراباً. لن نُدني منهم أحداً إلينا بعد اليوم! سيتم إيقاع جزاء شديد على كل من لا يلتزم بهذه القرارات، ويساعد المسلمين بأي شكل كان! "

قام المشركون بعد ذلك بكتابة هذه القرارات على ورقة، وقاموا بتعليقها على جدار الكعبة. كان المشركون قساةً، غِلاظ القلوب. أخذ المشركون يطبقون ما اتخذوا من قرارات بِشكل حرفي. فضاقت الحياة على المسلمين بشكل كبير.

فقد أُخرجوا من ديارهم، و تم الزج بهم في مكان بعيد عن مكة. فانقطعت بذلك علاقتهم بمكة. و لم يمر وقت طويل حتى نفذ ما لديهم من طعام، و أخذوا يعانون من الجوع والمرض.



و كانوا يجدون مشقة حتى في الحصول على ماء الشرب. أصبح المسلمون كبيرهم وصغيرهم في حالة يُرثى لها. وكان أنين الأطفال يُسمع من بعيد.

استمر الأمر على هذا الشكل مدة ثلاثة أعوام. ولكن المسلمين لم يتركوا جانب نبينا ﷺ على الرغم مما عانوه من محن كثيرة. لأن رسول الله ﷺ كان يعيش هو الآخر الصعوبات نفسها معهم. فقد أخرجه قومه من بيته، وزُجّ به في مواجهة مع الجوع والفقر. وظلَّ يعانى مع زوجته الحبيبة وأطفاله هذه الأيام العصيبة.

كان من بين الذين تسببوا في ظلم المسلمين رجل... رجل فاق الجميع قسوة. هذا الشخص هو أبو لهب، عم الرسول. فقد كان أول من ناصب المسلمين العداء.

و لم يكن يولي علاقة القرابة أي اهتمام. لم يكن يحب ابن أخيه محمداً ﷺ على الإطلاق. لم يترك طريقاً إلاّ وسلكه حتى يعيق الإسلام. فقد كان يذهب إلى القبائل التي تجيء إلى مكة من البلاد للتجارة، ويمنعها من بيع أي شيء للمسلمين. وكان يهددهم بالقتل لو باع أحد منه شيئاً للمسلمين.

لم يترك المسلمون دينهم حتى في ظل هذه الظروف الصعبة التي عاشوا فيها. لأنهم كانوا قد آمنوا. وكانوا يعلمون جيداً أن العون سيأتي من الله ﷻ عاجلاً أو آجلاً، وأنهم سينالون جزاء صبرهم في يوم من الأيام.



عام الحزن

كان أبو طالب عم الرسول ﷺ حزين لما يحدث لابن أخيه، و لكنه لم يستطع أن يؤثر على المشركين. أما حال المسلمين فكانت يُرثى لها. ولو أن الأمور استمرت على هذه الحال لمات الواحد منهم تلو الآخر بسبب الجوع والمرض. دار أبو طالب على بيوت مكة واحداً تلو الآخر، أراد من ذلك أن يرفع الحصار عن المسلمين.

وكان من بين مشركي مكة أناس لا زالت الرحمة في قلوبهم. لأن لهم أقارب بين المسلمين. وكان هؤلاء الأشخاص الرحماء منزعجين مما يعانيه المسلمون من ألم. وفي النهاية أسفرت جهود أبو طالب عن التوصل إلى نتيجة لهذا الأمر، انتهى على إثرها الحصار المفروض على المسلمين.

انتهت الأيام العصيبة. وعاد كل واحد من المسلمين إلى حياته الطبيعية.

لم يمر وقت طويل حتى مرض عم نبينا أبو طالب. كان أبو طالب شيخاً مسناً.



كان رسول الله ﷺ يحب عمه حباً شديداً. فقد كان هو من يحمي نبينا ﷺ من ظلم المشركين.

ولكنه لم يعتنق الإسلام. لازم رسول الله ﷺ عمه في مرضه ولم يفارقه قط. وكان يود أن يسلم قبل أن يموت. وكان يقول له:



"عمي الحبيب، قل لا إله إلا الله محمداً رسول الله، تنجو بها".

حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً عندما فارقت الروح جسد عمه، وبكى لذلك.

لم يُسلم أبو طالب، ولكنه ظل طيلة حياته عوناً وسنداً لابن أخيه. وكان عالي الشأن لدى المسلمين.

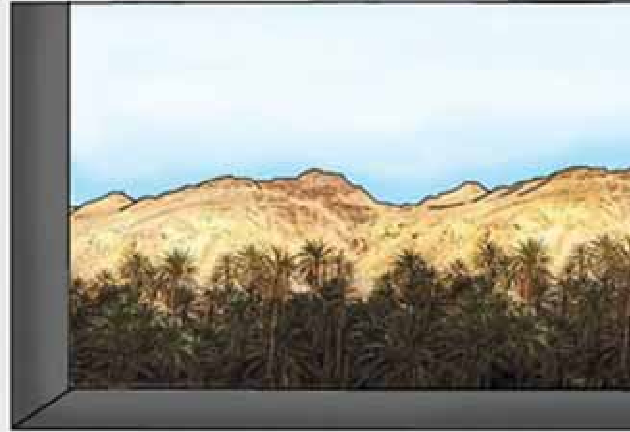
وبعد ثلاثة أيام من وفاة أبي طالب مرضت السيدة خديجة ﵂هي الأخرى. فقد أُجهِدت كثيراً أثناء فترة الحصار الذي ضُرِبَ على المسلمين.

وخارت قوتها بسبب الجوع والمحن التي عاشتها. لم تشعر السيدة خديجة ﵂ بالسعادة حتى عندما عادت إلى بيتها. فقد أخذت حالتها تزداد سُوءً مع كل يوم يمر. وكان رسول الله يفعل كل ما يستطيع كي تتعافى زوجته الوحيدة، ولكن السيدة خديجة لم تُشفَ من مرضها. وما هو إلاّ وقت قصير حتى توفيت هي الأخرى.

هزَّ موت السيدة خديجة ﵂ رسول الله ﷺ من الأعماق. فهي التي لم تجرح شعوره ولم ترده قط. بل ظلت إلى جواره دائماً. وقدمت له العون في كل أمر من أموره. ظل نبينا ﷺ يحبها، ويقدرها.

والآن؟ والآن لم تعد هناك. لقد رجعت إلى ربها.

كان حزن نبينا ﷺ عظيماً. كان يعيش لوعة فقدان إنسانة من أكثر الذين أحبّهم في حياته كلها.



عاش المؤمنون فترة حداد على موت أبي طالب والسيدة خديجة ﵂ بشكل متعاقب. وأُطلِق على هذا العام اسم "**عام الحزن**".

وظلَّ المسلمون يذكرون عام الحزن بأنه العام الذي اقترن بالأسى والحزن.



هدية الطائف

كم شعر المسلمون بالحزن في عام الحزن، وكم كانت سعادة المشركين في العام نفسه. وازداد إيذاؤهم للمسلمين. فتجرؤا عليهم وزادوا من إيذائهم. كانوا يظنون أن نبينا ﷺ قد أصبح وحيداً لا حيلة له. بيد أن الحقيقة هي أن الله ﷻ هو الصاحب للمسلمين. لهذا لم يكن المسلمون في أي وقت من الأوقات وحيدين. كان نبينا ﷺ يثق بربه ﷻ و يتوكل عليه في كل عمل يقوم به.

وفي يوم من الأيام أخذ مساعده زيداً، وغادرا المدينة إلى الطائف. كان نبينا ﷺ يود أن يدعو أهل الطائف للإسلام. و كانت الطائف من البلدان القريبة من مكة. وصل النبي إلى الطائف بصحبة زيد. و أخذ يُحدِّث الناس هناك عن الإسلام. و يدعوهم إليه. و لكن لم يكتف أهل الطائف بأنهم لم يستمعوا إليه، بل سخروا منه أيضاً. وقال للنبي: "ألم يجد الله من هو خير منك ليرسله ؟".

وأعطوا الأطفال حجارة ليقذفوا بها النبي ﷺ. أخذ الأطفال يتعقبون الرسول، و يمطرونه بالحجارة.

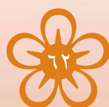
كان زيد يسير أمام رسول الله ﷺ حتى يقيه الحجارة وهو يصيح قائلاً: "لا تفعلوا! إنه رسول الله"

ولكن الحجارة كانت تصيب نبينا ﷺ. وسالت الدماء من قدميه.. أما زيد فأصابته الحجارة في جميع جسده و سالت منه الدماء كذلك. نسي زيد ما يشعر به من آلام، و أخذ يبكي على الظلم الذي يتعرض له رسول الله ﷺ.



و في النهاية ألقيا بنفسيهما في بستان هناك. وبذلك فقط نجيا بروحيهما من الإيذاء. كان زيد يشعر بغضب شديد على أهل الطائف الذين قذفوا نبينا ﷺ بالحجارة. أما نبينا ﷺ فكان قد التزم الصمت حزيناً. وظلَّ يدعو الله ﷻ من قلبه.

في تلك الأثناء خرج عليهما صاحب البستان الذي يجلسان فيه. وتألم لحال هذين الغريبين اللّذين لجاءا إلى البستان. وقال لخادمه عدَّاس أن يأتيهما بقطف من العنب. فجاء بالعنب، وقدمه إليهما. أكل نبينا من العنب وهو يقول: " بسم الله... "



فالبسملة هي كلمة يقولها المسلمون عندما يشرعون في أي عمل.

و تعني "بإسم الله"

أي أن المسلمين يذكرون الله ﷻ و هم يبدؤن أي عمل، ويوقرونه ويثنون عليه.

كان عدَّاس يؤمن بالنبي يونس عليه السلام. وكان قد سمع البسملة من قبل. فتعجب لذلك كثيراً، وسأل النبي قائلاً:

- إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. من أنت؟ و أخذ يتحدث إليهما عن سيدنا يونس عليه السلام. فرد عليه النبي ﷺ قائلاً:

- ذاك أخي!

أخبر نبينا ﷺ عدَّاساً أنه نبي أيضاً. ودعاه لدخول الإسلام؛ شعر عدَّاس بالحماسة تجاه هذا الأمر كثيراً، وأخذ يستمع لحديث النبي ﷺ بشغف. لم يعد لدى عدَّاس أي شك الآن. فآمن برسول الله. ونطق بالشهادة، وصار من المسلمين.

والأصح أنه استحق أن يرى السعادة على وجه نبينا ﷺ. فقد مُحيت الآلام التي عاشها نبينا في الطائف في لحظةٍ واحدة. فقد كانت نجاة شخص تعدل عند رسول الله ﷺ الدنيا بأسرها.

وكان إسلام عدَّاس هو هدية الطائف.





قَسم بالولاء

مرت اثنتا عشرة سنة. المسلمون يحافظون على دينهم على الرغم مما يواجهون من الصعوبات. وفي تلك الأثناء كانت رسالة الإسلام قد تخطت حدود مكة ووصلت إلى مدن أخرى بعيدة. وكانت المدينة واحدة من تلك المدن التي وصل إليها خبر عن الإسلام.

وفي يوم من الأيام جاء إلى مكة سراً جماعةٌ مكونة من اثني عشر شخصاً قادمين من المدينة. والتقوا بنبينا ﷺ في وادي يُقال له وادي **"العقبة"**. وهناك أخبروا الرسول ﷺ برغبتهم لِيتعرفوا على الإسلام، وأن يصيروا من المسلمين. وكان هذا عوناً كبيراً من الله ﷻ للمسلمين. فقد كان الناس قريبهم وبعيدهم يصغون لرسالة رسول الله ﷺ.

استقبل رسول الله ﷺ هؤلاء الأفراد بكل حب. وتحدث معهم عن ديننا الجميل الإسلام. فآمن هؤلاء القوم وصاروا من المسلمين. وعاهدوا رسول الله ألاّ يعودوا إلى دينهم القديم، وألا يفعلوا السوء وهو الأمر الذي أسعد أهل المدينة من المسلمين كذلك. لأنهم أصبحوا مسلمين مثلهم.

عاد مسلمو المدينة مرة أخرى إلى بلدهم المدينة، وقالوا أنهم سيعودون مرة أخرى بعد عام. لم يتراخ هؤلاء الأفراد بعد عودتهم إلى المدينة. بل أخذوا يُحدِّثون عائلاتهم و أقرباءهم و جيرانهم عن الإسلام. فَعَلِمَ عددٌ كبيرٌ من الشباب والشيوخ والنساء والذكور عن الإسلام.



وبعد عام رجع الوفد نفسه إلى مكة مجدداً. والتقوا بالرسول ﷺ في وادي العقبة مرة أخرى. كان الجميع يشعرون بالسعادة و هم يلتقون برسول الله ﷺ. وفي هذا اللقاء علَّمهم الرسول أسس الدين، وأمرهم ألا يشركوا بالله شيئاً، وألاّ يقتلوا أولادهم، و ألا يزنوا، وألا يسرقوا.

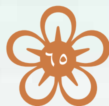
أما أهل المدينة فعاهدوا رسول الله ﷺ على ما أمرهم به، ووجهوا له الدعوة لزيارتها.

بايعوا رسول الله ﷺ على الولاء له قائلين:

"نبايعك أن نؤمن بك وبالله، وأن نمنعك مما منعنا منه أنفسنا. فإذا أخللنا بعهدنا فإنما أخللنا بعهد الله".

اشتد دين الله ﷻ بشكل أكبر مع هؤلاء الأفراد الطيبين. قَبِلَ نبينا ﷺ دعوتهم. فقد كانت المدينة هي المكان الذي يمكن لدين المسلمين أن يحيا فيه بشكل أفضل. وبالفعل كانت المدينة المكان الذي سيهاجر إليه نبينا ﷺ قريباً مع أصحابه أيضاً. ولكن الوقت لم يكن قد حان لذلك بعد.

بعث نبينا ﷺ مُصعب بن عُمير رضي الله عنه مع مسلمي المدينة إلى المدينة. كان مُصعب بن عُمير من شباب الصحابة الذين أسلموا وحسُن إسلامهم، وهو الذي علَّمهم أمور الدين، وقراءة القرآن بعد ذلك.



يوماً ما سنعود إلى مكة!

كانت المدينة بالنسبة للمسلمين باباً للأمل. كانت البلدة التي يمكنهم فيها أن يُؤَدوا عباداتهم، ويعيشوا دون أن يتعرضوا للتعذيب.

طلب نبينا مع مرور الزمن من المؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة. إنه لأمر صعب أن يترك المرء المكان الذي ولد فيه و كَبُر. ولكن كان الدين بالنسبة للمسلمين أهم من أي شيء.

استجاب المسلمون لأمر الرسول ﷺ. وبدؤا يغادرون مكة تاركين ديارهم وأموالهم وحقولهم وحدائقهم. و لم يتبق في مكة سوى عدد قليل من المسلمين. كان رسول الله ﷺ واحداً منهم. وكان هو الآخر يستعد للهجرة مع صديقه أبي بكر رضي الله عنه.

ثار أهل مكة عندما رأوا المسلمين يهاجرون إلى المدينة جماعات تلو الأخرى. واستشعروا الخوف من هذا قائلين:

"سَيَقْوى المسلمون في المدينة، ثم يعاودون الهجوم علينا!".

ورأوا من الضروري الإسراع في القيام بفعل شيء من أجل عرقلة هذا الأمر. و تحدثوا فيما بينهم قائلين:

"لو مات محمد ﷺ، سينتهي الأمر"



و قاموا على الفور بوضع خطة لأجل ذلك.وعندما خيّم الظلام، قاموا بالهجوم على بيت نبينا ﷺ كي يقتلوه. ولكن الله عظيم محيط بما يصنع الظالمون. أوحى الله ﷻ إلى نبينا ﷺ يخبره بما ينوي المشركون فعله، وأمر نبيّه بالهجرة في تلك الليلة.

كانت أعين أهل مكة ترصد تحركات نبينا ﷺ. كانوا يتعقبون خطواته.

لذا كان من الصعب عليه أن يترك مكة دون أن يشعر به أحد. طلب نبينا ﷺ من سيدنا علي رضي الله عنه بالنوم في فراشه في تلك الليلة. وقال له:

- لا تخف، سيحميك ربي.

خرج النبي بعد ذلك من بيته سراً. و توارى هو وصديقه أبو بكر في ظلام الليل فلم يدر بهما أحد. خطط المشركون للهجوم على البيت. ولكنهم استشاطوا غضباً عندما رأوا عليّاً رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ، وعندها صاح أبو جهل قائلاً:

- لماذا تقفون! هيا بنا نلحق بمحمد قبل أن يبتعد كثيراً.

نعم، كان نبينا يبتعد عن مكة. غادر مُخلِّفاً وراءه مكة التي أحبها كثيراً. من أجل هذا كان يشعر بالحزنِ. ظل نبينا يدعو أهل هذه البلدة للإسلام طيلة ثلاث عشرة سنةً. ولكن أكثرهم لم يستمع لرسول الله ﷺ ولم يرد أحد منهم أن يؤمن به. وها هو يذهب ذلك النبي المبارك ويغادر مكة!

نظر نبينا ﷺ للمرة الأخيرة إلى أنوار البلدة التي تلمع، وقال فيما معناه وحبها لم يفارق قلبه:

- أعِدك مكة! أننا عائدون إليك بإذن الله في يوم من الأيام.




العهد المدني

الحمامة والعنكبوت

كان نبينا الحبيب وسيدنا أبو بكر قد أخذا طريقهما إلى المدينة على عجلة. فقد أرادا أن يصلا هناك قبل أن يقعا في قبضة المشركين. أما المشركون فلم يهدأ لهم بال أيضاً. وبدؤا يتعقبون أثر أقدامه عندما لم يجدوه في بيته.كان سيدنا أبو بكر يخشى أن يصيب نبينا الحبيب مكروه. من أجل هذا كان يذهب ويجيء بفرسه فوق أثار الأقدام حتى تختلط الأثار. ومع هذا لم تختفِ أثار أقدامهما تماماً.

كانا قد ابتعدا كثيراً عن مكة. وكان الظلام الدامس يخيم على المكان. وكان نبينا الحبيب وسيدنا أبو بكر يشعران بالتعب و الإجهاد. ومع هذا كان يجب عليهما أن يجدا مكانا آمناً يلجأن إليه حتى لا يعثر عليهما المشركون. وكان في هذا المكان غار يعرف باسم **"غار ثور"**.

فأخذا قرارهما باللجوء إليه، والاختفاء بداخله. وبالفعل وصلا إليه متعبين منهكين.

أما مشركوا مكة، فلم يدخروا جهداً في البحث عنهما في كل مكان. واستمروا في ذلك من دون توقف مدة ثلاثة أيام. في تلك الفترة كان نبينا الحبيب وسيدنا أبو بكر مازلا في غار ثور.

وكان عبد الله بن سيدنا أبو بكر يعلم المكان الذي اختبئ فيه نبينا الحبيب مع أبيه. ولهذا كان يتردد عليهما في الغار كل يوم لينقل لهما الطعام و يروي عليهما ما يدور في مكة. أما مشركوا مكة فقد استمروا



في بحثهم من دون كلل أو ملل. وفي النهاية تمكنوا من الوصول إلى أمام غار ثور مباشرة متعقبين آثار أقدامهما حثيثاً حثيثاً. أخذوا يقتربون إلى الغار، حتى أن أصوات أقدامهم وأحاديثهم كانت تُسمع من داخل الغار. في تلك الأثناء رفع سيدنا أبو بكر رأسه فرأى أقدام المشركين، فتحدث إلى رسولنا الحبيب و قد أصابه التوتر و الخوف: - يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

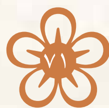
فقال له رسول الله رداً على مقولته: - لا تحزن إن الله معنا.

قام عنكبوت، قبل أن يدرك المشركون الغار، بنسج خيوطه على مدخل الغار، وتزامناً مع ذلك قام زوج من الحمام أبيض اللون ببناء عش لهما عند مدخل الغار كذلك، ووضعت الأنثى بيضها.

فلما جاء المشركون وأبصروا ذلك، تحدثوا فيما بينهم، وقالوا:

- لو أنهم بالداخل، لتقطعت خيوط العنكبوت، وانهدم عش الحمامة.

اغتاظ المشركون كثيراً لأنهم فقدوا أثر قدم نبينا الحبيب. وظنوا أنه وصل إلى المدينة منذ مدة. من أجل هذا لم يروا ضرورة للدخول إلى الغار والنظر فيه، فابتعدوا عن المكان. ولم يعد لديهم مفر من العودة إلى مكة مجدداً.



المسافر المُنتظر



عمَّت المدينة سعادة غامرة. نزل أهل المدينة جميعهم إلى الطرقات، وظلت عيونهم تترقب وصول رسول الله ﷺ في الطرقات أياماً. كانوا ينتظرون أفضل الضيوف، ينتظرون نبينا الحبيب. تسلق بعض الأشخاص التلال حتى يتمكنوا من رؤيته، وتسلق البعض الآخر الأشجار.

كانوا يرقبون الطريق. وكان أول شخص يراه، هو الذي سيخبر المدينة بأسرها بقدوم النبي ﷺ.

لم يكن أحد من أهل المدينة قد رأى النبي من قبل. ولكنهم كانوا يحبونه حباً شديداً. فلو لم يكونوا يحبونه بهذا الشكل لما كانت هناك ضرورة لرؤيته... فهو الرسول الذي دعاهم إلى الإسلام. وهو بأخلاقه الحميدة القدوة الحسنة للناس كافة. آمن أهل المدينة بنبينا ﷺ، وخضعوا وسلَّموا بما جاء من عند الله ﷻ من أوامر. آمنوا بديننا الجميل الإسلام. وكانوا يتلهفون على ذلك الرسول المُبارك. كانوا يتوقون لرؤية وجهه الجميل، ومخاطبته قائلين:

"أهلاً بك يا رسول الله في مدينتنا! شَرُفنا بقدومك إلينا".

في تلك الأثناء لاحَ شخصان من بعيد. جاءا من جهة جبل الوداع، يمتطي كل منهما ناقته. كان نبينا ﷺ مثل الضياء. أضاء بنوره أفق المدينة كلها. ها هو ذلك النبي العظيم يجيء في النهاية. صاح أحد الذين وقفوا لإستطلاع الطريق قائلاً:

- رسول الله قادم رسول الله قادم!

بدأ كل شخص في المدينة يبكي من فرط سعادته. وأخذوا يضربون الدفوف منشدين:

"طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا، جئت بالأمر المطاع

جئت شرَّفت المدينة

مرحبا يا خير داع"

تحرك الجميع في لحظة واحدة. جرى الجميع صغيرهم و كبيرهم نحو رسول الله، أخذوا يلقون عليه السلام بمحبة. وكان سيدنا النبي يبتسم ويرد عليهم السلام هو الآخر. كان يشعر بالسعادة لتعرفه بأخوته من أهل المدينة، وقبولهم له في هذه المدينة. فصار الشعب الذي أعطى لرسالته صوتاً. لذا كان شكر نبينا لله ﷻ لا حدود له. كان أهل المدينة قد بدؤا استعداداتهم مبكراً للغاية. أراد كل واحد منهم أن يُضيِّف رسول الله ﷺ في بيته. فأخذ كل واحد منهم يشد لجام ناقته، ويقول:

- ابق عندي يا رسول الله! انزل ضيفاً عندي يا رسول الله!

أما نبينا فلم يرغب في رد دعوة أحد منهم. وقال لهم:

- "خلوا سبيلها –يقصد ناقته القصواء – فإنها مأمورة".

فسينزل الرسول ﷺ في المكان الذي تتوقف عنده الناقة.

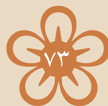
في تلك اللحظة خيم الصمت على سائر أهل المدينة. وبدؤا يتابعون سير ناقة النبي ﷺ بلهفة. كانت الناقة تسير كما لو كانت تعرف الطريق الذي ستذهب إليه. الأمر الذي جعل الناس يندهشون لأمرها.

أخذت القصواء تتقدم في الطرقات أكثر فأكثر حتى وصلت إلى بيت بركت أمامه بسرعة. وكان هذا البيت لأبي أيوب الأنصاري.

وهذا يعني أن الرسول ﷺ سينزل ضيفاً على أبي أيوب الأنصاري. شعر أبو أيوب الأنصاري بالفرح، وأحس لحظتها أنه أكثر من يعيشون على الأرض سعادةً لأن رسول الله ﷺ ضيف عنده.

بذلك انتهت الرحلة من مكة إلى المدينة. لقد خلَّف المسلمون وراء ظهورهم ديارهم وأموالهم وأقرباءهم. وتوجهوا إلى المدينة حتى يعيش الإسلام. وفي يوم من الأيام سيعودون بإذن الله مرة أخرى إلى هناك.

أما الآن فبيوتهم في المدينة. تلك المدينة المباركة التي فتحت ذراعيها لرسول الله!



المتحابون في الله

لقد صار هناك بعد الهجرة تلاحم وترابط قوي بين أهل المدينة والمسلمين الذين جاءوا من مكة. حيث أطلق أهل مكة على إخوانهم من أهل المدينة اسم " **الأنصار**" لأنهم كانوا أصحاب البيت.

كما أُطلق اسم "**المُهاجرون**" على القادمين من مكة.

ولَم يمر وقتٌ طويلٌ حتى اجتمع مسلمو مكة والمدينة في دار"الأرقم"، وكان عددهم يقدر بمائة. تحدث نبينا ﷺ إليهم، وقال فيما معناه:

- إن المهاجرين والأنصار إخوة، فتخيروا إخوانكم.

كان ذلك اتفاقاً للمؤاخاة، فمنذ ذلك اليوم صار المهاجرون والأنصار إخوة. حيث كان كل سيد من عائلات أهل المدينة يستضيف أسرة من المهاجرين من أهل مكة ويقاسمونهم بيوتهم، وأغراضهم، وأموالهم. وبهذا الشكل لم يبق أحد من أهل مكة- الذين خلفوا ديارهم ووطنهم وأتوا إلى المدينة- بلا مأوى.

وكان الجميع يشعرون بالحماسة. فالإخوة كل منهم يقف إلى جوار الآخر. يحاول كل منهم أن يتعرف إلى الآخر و يفهمه. وقام كل واحد من أهل المدينة باتخاذ أخ له من أهل مكة،

و اصطحبه إلى داره. واقتسم معه داره، ومتاعه وماله. في تلك الأثناء كان المهاجرون يشعرون بدهشة، وفرحة غامرة في الوقت نفسه.

وبذلك لم يبق أحد بالمدينة جائعاً، عارياً. وعلى الرغم من هذا لم يركن المهاجرون إلى ما فعله الأنصار، وقالوا لقد أعطانا الأنصار المال والدار، بل سعوا للعمل حتى يكسبوا قوت يومهم. ووجدوا أعمالاً تؤمِّن معيشتهم.

كان المهاجرون والأنصار ينامون سوياً ويعملون سوياً ويأكلون سوياً. يا لها من مؤاخاة رائعة ستستمر في الدنيا والآخرة .

"الآخرة" هي الدار التي سنُبعث إليها من جديد بعد الموت. وفيها سيخلد المسلمون معاً في الجنة و سوف يستمر التلازم بين المهاجرين والأنصار في الجنة كذلك.

لقد أصبحت المدينة وطناً للمسلمين.

أصبحت هذه الدولة الإسلامية في سموها وارتفاعها مثل الشمس.

لقد تحققت كل هذه الأمور الحسنة نتيجة لصبر المسلمين ومؤاخاتهم .



طُلاّب القرآن

كان النبي ﷺ يقيم في منزل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. ولم يكن هناك أماكن يقيم فيه المسلمون الصلاة. فبدؤا على الفور في بناء مسجد، وبذلوا قصارى جهدهم في بناء المسجد. فكانوا يخلطون الطين، ويحملون اللبنات،ويبنون الجدار. وقد شارك النبي ﷺ بنفسه في بناء هذا المسجد.

وفي هذه الأثناء وصل المسلمون المهاجرون من مكة، وكان من بينهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.سعد النبي ﷺ كثيراً بمجيء علي رضي الله عنه؛ لأنه واحد من أبناء عمومته.

كانت تمضي الأيام في المدينة وسط جو مفعم بالحيوية. كان هناك قبائل يهودية تعيش في هذه المدينة، وبعد الهجرة عقد النبي ﷺ معاهدة بينهم وبين أهل المدينة. وبموجب هذه المعاهدة سيعيش المسلمون واليهود في سلام، ولن يتعرض أحد منهم لآخر بسوء.

وهنا صار المسلمون أكثر حرية. فكانوا يفعلون ما بوسعهم لنشر دينهم.



هناك قبائل صغيرة كانت تعيش في المناطق المحيطة قد سمعت هي الأخرى عن النبي ﷺ، وانتابها الفضول إزاء الدين الإسلامي، فبدأت تتردد على المدينة. وكان رسول الله ﷺ يعلم الدين الإسلامي لكل من يأتي إليه.وهم أيضاً كانوا يتحدثون عن الدين الإسلامي حيثما ذهبوا. وهكذا ازداد عدد المسلمين بمرور الوقت.

وفي غضون ذلك اكتمل بناء المسجد. فأصبحت الصلوات تُقام جماعة؛ "**الجماعة**" تعني المشاركة، فالمشاركة في الإسلام شيء مهم للغاية. وعليه يجتمع الناس في المسجد خلال مواقيت الصلاة، إلاّ أنهم لم يكونوا قد قرروا بعد كيف سيخبرون بعضهم البعض بمجيء موعد الصلاة.

وفي تلك الأيام رأى عمر رضي الله عنه رؤيا.رأى شخصاً يحمل بيده ناقوساً، ويرتدي رداءاً أخضر. فقال له عمر: "أتبيع الناقوس الذي بيدك؟"

رد عليه الرجل قائلاً: "ماذا ستفعل به؟"

قال عمر: "سأدقه لكي أخبر الناس بمواقيت الصلاة"

فقال الرجل: "دعني أعلمك شيئاً أفضل!"

توجه الرجل نحو القبلة (القبلة هي المكان الذي يتجه صوبه المسلمون أثناء الصلاة. وفي تلك الأوقات كان المسلمون يصلون صوب المسجد الأقصى -الذي يقع في مدينة القدس- وليس الكعبة) وأذّن الرجل بصوت عالٍ قائلاً:

"**الله أكبر، الله أكبر....**"

عندما استيقظ عمر رضي الله عنه ذهب فوراً إلى النبي ﷺ، و حكى له رؤيته. فقال النبي ﷺ فيما معناه أن الله عز وجل قد ألهمنا هذه الرؤيا، وطلب من عمر رضي الله عنه أن يعلم بلالاً رضي الله عنه كيفية الأذان. فصار بلال هو من يؤذّن في مواقيت الصلاة، ويدعو المسلمين إلى المسجد.

يمثل المسجد أهمية بالنسبة للمسلمين، فبداخله تُقام الصلاة، وتُعقد الاجتماعات. وبجوار المسجد أقام النبي ﷺ مكاناً لمن لا مأوى له من المسلمين، وسمَّى هذا المكان بـ" **الصُفَّة**"، كما أُطلق على قاطني هذا المكان "**أهل الصفة**".

أُسس هذا المكان ليكون ملاذاً للفقراء، وأيضاً للتعليم. كان النبي ﷺ يحب كثيراً من يقيمون في هذا المكان، ويوليهم الاهتمام، ويعطيهم باستمرار دروس القرآن. لذلك كان أهل الصفة أثرياء بمعلوماتهم الإسلامية. كما كان يبعثهم النبي كمعلمين إلى القبائل التي تريد أن تتعلم الدين الإسلامي.



السيدة عائشة رضي الله عنها

مرت ثمانيةُ أشهر على الهجرة، وكان بناء المسجد قد انتهى. ولَم يمر وقت طويل حتى تم الإنتهاء من بناء منزل ملاصق للمسجد. كان هذا البيت هو بيت النبي ﷺ. في ذلك الوقت كان نبينا ﷺ يتأهب لمغادرة بيت أبي أيوب الأنصاري.

كان بيت أبي أيوب الأنصاري مكوناً من طابقين. وكان النبي ﷺ يقيم في الطابق الأرضي لكثرة الأعداد التي كانت تتوافد على البيت. و لكن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه كان يشعر بالخجل لأنه يقيم في طابق فوق رسول الله ﷺ . وكان شديد الحرص على عدم إحداث جلبة أو أي شيء من شانه إزعاج رسول الله ﷺ.

لهذا السبب كان يلتزم هو و زوجته الصمت. وعندما أدرك نبينا ﷺ هذا الأمر انتقل هو إلى الطابق العلوي. وبهذا شعر أبو أيوب الأنصاري و زوجته بالراحة. كان نبينا ﷺ راضياً عن صنيع صاحب البيت معه. كان يمدح ما يفعله من خير، ويدعو له كثيراً.

في تلك الأثناء بلغت السيدة عائشة ابنة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه سن الزواج.



وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها قد اعتنقت الإسلام وهي مازالت في سن صغير للغاية. أحب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ابنته حباً كثيراً، وأنشأها على التربية الإسلامية. توجهت السيدة عائشة رضي الله عنها مع عائلتها بعد الهجرة إلى المدينة شأنها في هذا شأن سائر المسلمين. وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يشعر بالوحدة بعد وفاة السيدة خديجة. ولَم يكن في ذلك الوقت قد تزوج من أخرى. في تلك الأثناء رجَّحت نساء المسلمين السيدة عائشة رضي الله عنها ابنة سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لتصبح زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم.

استحسن نبينا صلى الله عليه وسلم هذا الرأي. فذهبت النساء إلى سيدنا أبي بكر وطلبت منه عائشة زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم. وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يحب نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر من أي شخص آخر.

من أجل هذا شعر بسعادة غامرة لطلب نبينا صلى الله عليه وسلم الزواج من ابنته. ولبَّى رغبته راضياً سعيداً. أما السيدة عائشة رضي الله عنها فكانت هى الأخرى تود لو تزوجت بنبينا صلى الله عليه وسلم.

مر على ذلك فترة لم يتزوج فيها نبينا صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة رضي الله عنها إلاّ عندما حان وقت انتقاله إلى بيته الملاصق للمسجد. فانتقلا الإثنان إلى هناك. وأقاما بيتاً سعيداً. وكان كل منهما يبادل الآخر بالحب.

كانت عائشة رضي الله عنها زوجة راجحة العقل. ولم تكن تنس شيئاً قط. تستمع باهتمام إلى كلمات نبينا صلى الله عليه وسلم، وتحتفظ بها في ذهنها. تفهم ما يريده منها، وتقوم بتنفيذه على الفور.

كان للسيدة عائشة رضي الله عنها مكاناً مهماً بين نساء المسلمين.

فكانت النساء يأتين إليها ليسألن عن أشياء لم يُدركن معناها. وكانت تجيب على أسئلتهم أو بعد أن تستعين بالنبي صلى الله عليه وسلم و تسأله عما لا يعرفن.

كانت أُمُّنا عائشة رضي الله عنها أحد أكثر الذين نقلوا إلينا كلمات نبينا صلى الله عليه وسلم.

"لك الأمر و علينا الطاعة يا رسول الله"

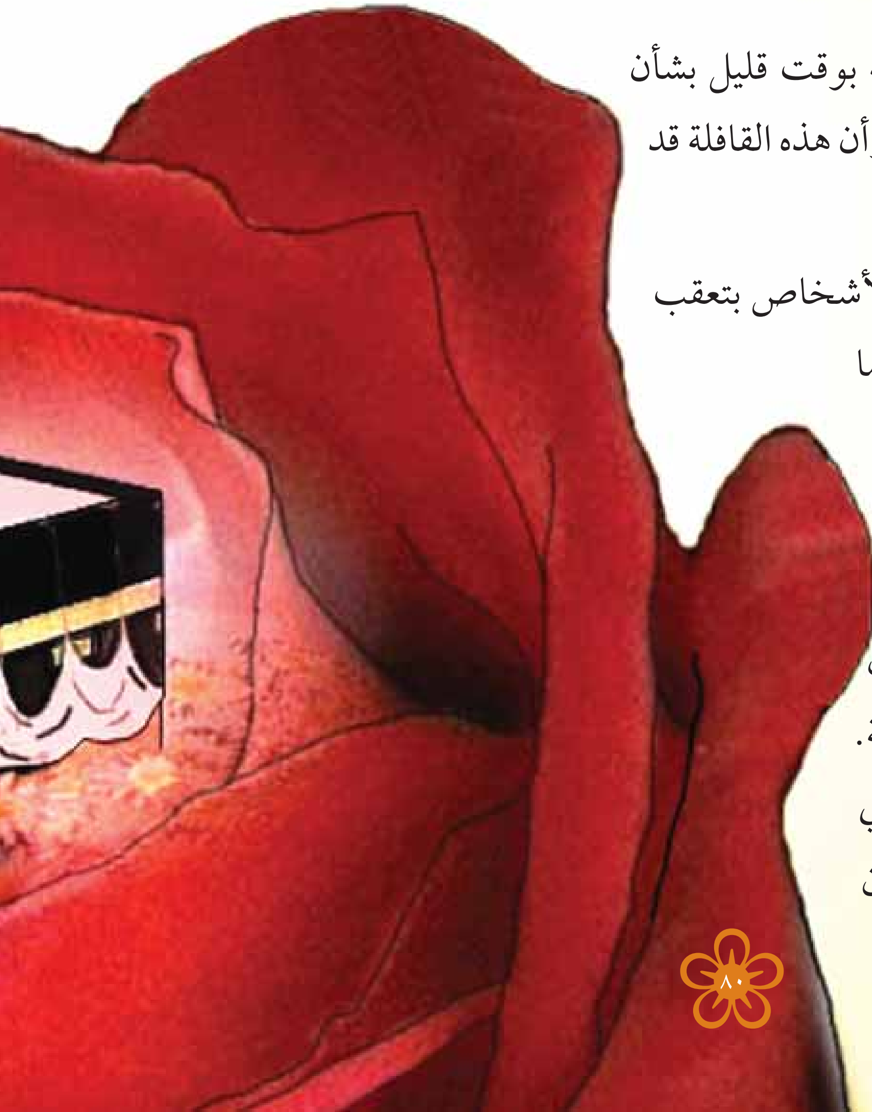
كان المسلمون يصلون متخذين من المسجد الأقصى قبلةً لهم. أما نبينا ﷺ فكان يود بشدة أن يتخذ الكعبة قبلةً أثناء الصلاة. وكان يدعو الله ﷻ باستمرار ليأذن له بذلك.

وفي يوم من الأيام وبينما رسول الله ﷺ يؤُم أصحابه في الصلاة، نزل الوحي من قِبل الله ﷻ عليه وهو في الركعة الثانية، وتلقى النبي الآية الكريمة

﴿... **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ...﴾ (البقرة، ١٤٩)

لم يَقطع رسول الله ﷺ صلاته عندما تلقى الأمر عن ربه تعالى، بل التفت ناحية الكعبة، وأتم صلاته ناحيتها.

فعل الصحابة كما فعل نبينا ﷺ. وبذلك أصبحت الكعبة هي قبلة المسلمين الجديدة. واستجاب الله ﷻ لدعاء نبيه.



جاء خبر إلى المدينة بعد هذه الحادثة بوقت قليل بشأن خروج قافلة تجارية تتبع مشركي مكة، وأن هذه القافلة قد سلكت طريقاً قريباً من المدينة.

فأصدر نبينا ﷺ الأمر إلى عدد من الأشخاص بتعقب هذه القافلة خِفيةً. كان يريد أن يعرف ما الذي تحمله القافلة، ومن بها، ومن يترأس القوم بها.

لم يلبث هؤلاء الرجال أن عادوا ليخبروا رسول الله ﷺ أن أبا سفيان زعيم المشركين هو الذي يترّأس القافلة. وكان أبوسفيان أكبر زعماء المشركين في مكة. وهو أيضاً الذي أساء إلى المسلمين إساءةً بالغة.



قام رسول الله ﷺ عندما علم بهذا بتجهيز جيش قوامه ٣١٥ رجلاً وانطلق به نحو القافلة. من ناحية أخرى قام بعض المنافقين في المدينة بإخبار أبي سفيان بهذا الأمر، وقالوا له خفيةً أن المسلمين سوف يهجمون على القافلة.

شعر أبو سفيان ومَن معه بالخوف. فأرسل على الفور إلى مكة يُعلِمهم بما حدث ويطلب منهم العون. اضطرب المشركون كثيراً لدى سماعهم هذا الخبر.

وقام أبو جهل علي الفور بجمع جيش قوي.

لم يكن نبينا ﷺ قد خرج لهدف الحرب. بل كان يخطط للإستيلاء على القافلة، وتلقين المشركين درساً جيداً.

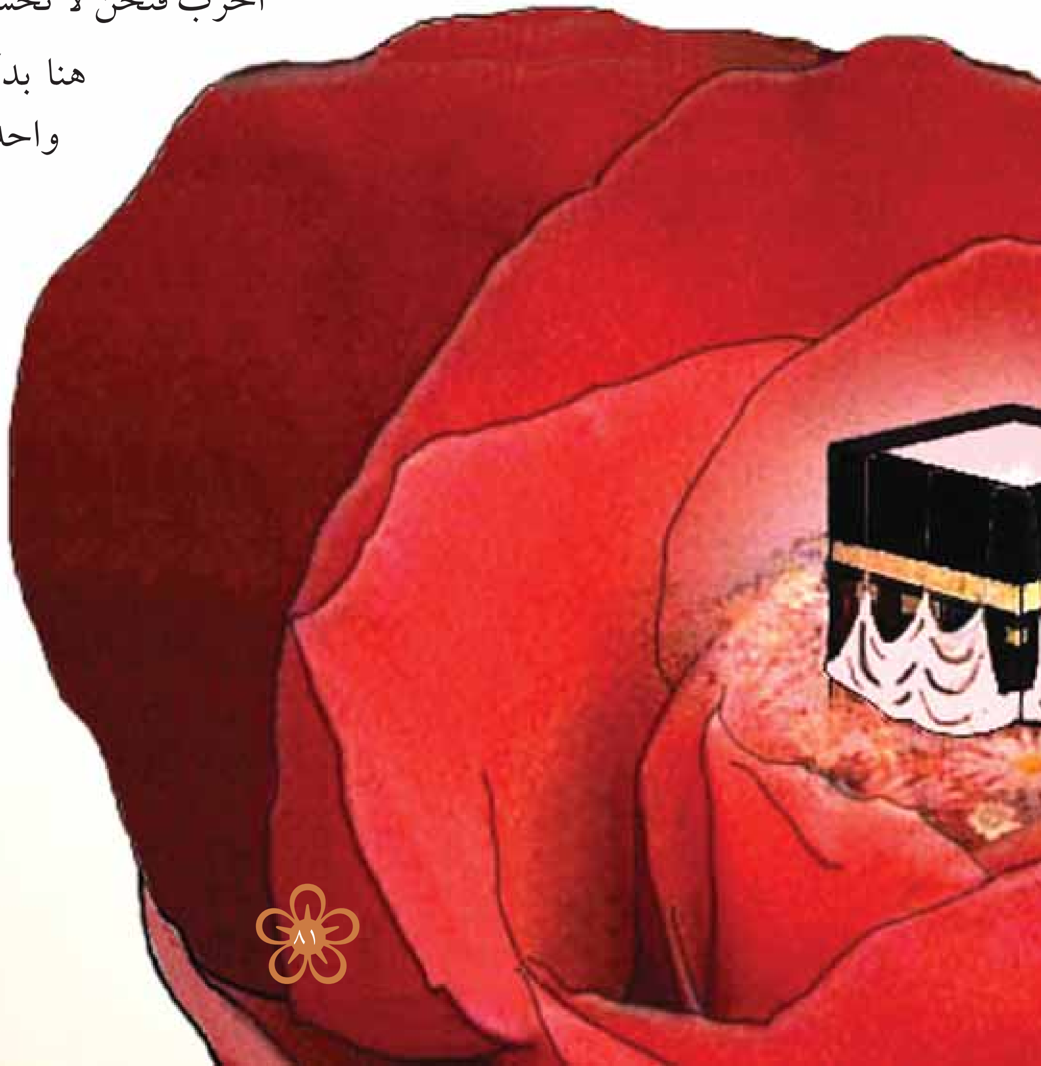
والآن أصبح لديه خياران. إما أن يقوموا بتعقب القافلة أو الدخول في حرب مع جيش مكة. من أجل هذا طلب نبينا ﷺ الشورى من أصحابة. كان يريد أن يعرف ما يودون فعله. فقال له الصحابة:

- يا رسول الله امضِ لما أمرك الله به فنحن معك. ولن تجدنا إلا لِأَمرك طائعين. فإن كان بدأ من الحرب فنحن لا نخشى الموت.

هنا بدأ الجميع يهتفون في لحظة واحدة "الله أكبر! ".

فأستبشر نبينا ﷺ خيراً، ثم قال:

"سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ..."





أُسود بدر

كان جيش المسلمين يتقدم بجرأة. والمجاهدون يشعرون بالسعادة متَّقدو العاطفة.

يُطلق اسم "المجاهد" على كل من يُحارب في سبيل الله ﷻ.

أمّا "الشهداء" فهم الذين يموتون في سبيل الله .

فإذا توفي في المعركة فهو شهيد، و يكون مثواه الجنة. والشهادة كلمة لها معنى سامٍ للغاية.

كان جيش المسلمين قد سار إلى خارج المدينة في مكان يُقال له بدر.

وهناك حط المسلمون رحالهم بجوار بئر. كان جيش المشركين يقترب بسرعة أيضاً. جيش قوامه ألف رجل معهم قطيع من الجمال و الخيول و الطعام. يسيرون واثقين من أنفسهم، يعتقدون بفوزهم بالمعركة. لهذا السبب ظلوا طيلة الطريق يضحكون ويلهون.

أما نبينا ﷺ الحبيب فتوجه بكل قلبه إلى ربه ﷻ، وأخذ يدعوه قائلاً:

"اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً، اللهم وعدك وعهدك "

لم يمر وقت طويل حتى التقى الجيشان. وكان من عادة هذا الزمان أن يخرج ثلاثة فرسان من الطرفين قبل بَدْءِ المعركة فينازل كل منهم الآخر. فخرج من المشركين عُتبة و شيبة والوليد. و بدا كل واحد منهم واثقاً من نفسه وهو يصيح و يسخر من المسلمين.

وأخرج نبينا ﷺ لهم من المسلمين عمه حمزة وعُبيدة وابن عمه علي رضي الله عنهم. بدأ النزال، و لكنه لم يستمر طويلاً فقد قُتِل المشركون الثلاثة في وقت قصير.

غضب أبو جهل كثيراً لموت الرجال،

والتفت إلى جيشه قائلاً: "هجووووم".

بدأ المشركون يركضون بسرعة باتجاه المسلمين.

و ما هو إلا وقت قصير حتى بدأت حرب طاحنة بين الجيشين.

كان المجاهدون يقاتلون مثل الأسود. لم يكن بداخل أي منهم خوف.

و من بين المجاهدين كان هناك شابان تجردا من خوفهما. كانا يبحثان حثيثاً حثيثاً في أرض المعركة عن أبي جهل. لأنه كان قائد المشركين، و لو أنه قُتِل، فربما كسب المسلمون المعركة.



يُضاف إلى هذا مبلغ الإساءة التي وجهها للنبي ﷺ. لهذا كانا يريدان أن يُنزلا به الجزاء. نجح الشابان في النهاية في الحصول عليه. فانقضَّ الإثنان عليه. لم يدر زعيم المشركين ماذا يفعل. و لم يمض وقت طويلٌ حتى قُتِل أيضاً. لم يترك الله ﷻ المسلمين في هذه المعركة وحدهم، فأرسل جيشاً من الملائكة عوناً لهم. فازداد المجاهدون بذلك قوةً. لفّ الخوفُ المشركين. وبدؤا يلوذون بالفرار لما تبين لهم أنهم سيخسرون المعركة. كانت أوصال المشركين جميعهم ترتعد من الخوف.

انتصر المسلمون في الحرب التي دارت رحاها على أرض بدر. اُستُشهد من المسلمين خمس عشرة رجلاً. أما جيش المشركين ففقدوا سبعين رجلاً.

حزن المسلمون لموت أصدقائهم. ولكنهم سعدوا في الوقت نفسه لأنهم علموا أنهم سيدخلون الجنة. وبعد انتهاء المعركة عاد الجيش مرة أخرى إلى المدينة وقد غنموا البضائع التي كانت تحملها القافلة، وأسروا بالإضافة إلى ذلك سبعين من جيش المشركين.

يطلق اسم "أسير" على الشخص الذي يُحتجز من جيش العدو أثناء المعركة. ذهب نبينا إلى الأسرى. و سأل أي منهم يجيد القراءة و الكتابة، ثم تحدث إليهم واتفق معهم على أن يُعلِّم كل واحد من الأسرى عشرة من المسلمين القراءة والكتابة. بعدها سيكونون أحراراً.

كان نبينا رحيماً حتى بالأعداء.



السيدة فاطمة رضي الله عنها و سيدنا علي رضي الله عنه

فاطمة رضي الله عنها هي أصغر بنات نبينا ﷺ الأربعة. كان نبينا ﷺ يحب فاطمة حباً شديداً. وكانت هي الأخرى تحبه بشدة.

حدث ذلك بينما كان رسول الله ﷺ مازال في مكة. كان نبينا ﷺ يصلي في المسجد ذات يوم عندما أخذ أبو جهل و أصدقاؤه يسخرون منه. وأحدهم بعد ذلك وضع أمعاء بعير (جزور) مذبوح على رأس الرسول ﷺ وهو ساجد. كانت أمعاء البعير ثقيلة قذرة للغاية.

رأت فاطمة رضي الله عنها ما فعله هؤلاء الأشخاص، وكانت ما تزال صغيرة في السن. فغضبت مما فعلوا وجَرَتْ فاطمة رضي الله عنها على الفور نحو أبيها محمد ﷺ، وأخذت تزيح بصعوبة أمعاء البعير الضخمة عن رأس أبيها وهي تبكي. عندئذٍ دعا عليهم، وقال :

" اللهم عليك بمن فعل بي هذا السوء ".أو كما قال عليه الصلاة والسلام

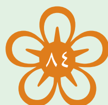
كبُرت فاطمة، و بلغت سن الزواج فأراد عدد كبير من الصحابة أن يتزوج بها. لأنهم بهذا الشكل سيكون لهم صلة قرابة بنبينا ﷺ. ولكن نبينا ﷺ كان يريد أن يُزَوِّج فاطمة لابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان يدعو الله ليقدر الخير في هذا الأمر.

سيدنا أبو بكر، و سيدنا عمر، و سيدنا عثمان رضي الله عنهم هم أقرب الأصدقاء إلى نبينا ﷺ. وكانوا يعلمون أن نبينا ﷺ يريد أن يُزَوِّج ابنته إلى علي رضي الله عنه. وكانوا يقولون هذا لعلي رضي الله عنه.

والواقع أن علياً رضي الله عنه كان هو الآخر يريد أن يتزوج بها، و لكنه لم يجرؤ على قول هذا للنبي ﷺ، وكان يتردد، قائلاً:

"إذا قال لي رسول الله لا.... إذا لم يَرَ فيَّ الشخص المناسب لابنته".

وفي النهاية ذهب سيدنا عمر رضي الله عنه إلى علي رضي الله عنه وقال له أنه يرغب في الزواج من فاطمة. استجمع علي رضي الله عنه شجاعته أيضاً، و ذهب إلى النبي ﷺ وقد شعر بخجل شديد.



لم يكن يعلم من أين يمكنه البدء في هذا الأمر. فأحنى رأسه و التزم الصمت. كان النبي ﷺ قد فهم السبب الذي جاء من أجله. فبادره بالسؤال بعد فترة قصيرة فقال رسول الله ﷺ:

ما جاء بك ألك حاجة؟ فسكت. فقال ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟

هزّ علي رضي الله عنه رأسه علامة الإيجاب،

وقال:- نعم.

بدت الإبتسامة على وجه نبينا ﷺ.

قبل رسول الله أن يُزوِّج ابنته لعلي رضي الله عنه.و لكنه كان يريد أن يسأل ابنته.

ولم يَكُن سؤال الفتاة عن رأيها من المتعارف عليه

وفق العادات السائدة في ذلك الوقت في الجزيرة العربية.

لأنهم كانوا ينظرون إلى الفتيات و النساء بأنهن شيء

لا قيمة له. ولكن نبينا ﷺ كان يسأل بناته وزوجاته عن

رأيهن في كل مسألة. ولم يكن ليجبر أيّاً منهن

على شيء لا يرغبن فيه.

من أجل هذا سأل السيدة فاطمة رضي الله عنها كذلك،فقبلت هي

الأخرى الزواج بعلي رضي الله عنه. وبذلك تزوجت ابنته الحبيبة

بابن عمه الذي أحبه كثيراً.

تزوج الشاب المسلم بالفتاة المسلمة و لم يكن

لديهم سوى أغراض قليلة للغاية.

و لكن لم يهتمّ أي منهما بمثل هذه الأمور.

لأنه لا أهمية لشيء في بيت أُسِّس لطاعة الله عز وجل.



أتقنوا أعمالكم

كان ذلك في العام الثالث من الهجرة عندما أُعلن حدادٌ عظيمٌ في مكة. لقد فقد المشركون في بدر أناساً كانوا يقدرونهم. فكان من الصعب عليهم أن يقبلوا بهذه الهزيمة بأي حال من الأحوال. وفي يوم من الأيام توجه أهل قريش إلى أبي سفيان، وقالوا له:

- لقد قتل محمد وُجهاءنا، و نرغب في محاربته!

كان أبو سفيان هو الآخر يتقد بنار الانتقام لبدر. لهذا أيَّد ما يدعون إليه. وقام على الفور بنشر الخبر في مكة و القرى المحيطة بها. واستطاع في وقت قصير أن يجهز جيشاً قوياً قوامه ثلاثة آلاف رجل. والتحق بهذا الجيش كذلك بعض النساء اللاتي فقدن أقارب لهن في بدر. كان من بين هؤلاء هند زوجة أبي سفيان التي قُتِل أبوها وأخوها في بدر.

خرج الجنود بقيادة أبي سفيان يركبون خيولهم، ويحملون سيوفهم ودروعهم متوجهين إلى المدينة. وكانت النساء تتجول بين الجنود تضرب على الدفوف لتحفيزهم وتشجيعهم على القتال...

في تلك الأثناء كان سيدنا علي ﵁ والسيدة فاطمة ﵍ قد رُزِقا بطفل أطلق عليه نبينا الحبيب اسم "**الحسن**". وستضع بعد ذلك حفيداً آخر سيضع له كذلك اسم "**الحسين**".

كان النبي ﷺسعيداً لأنه أصبح له حفيداً. ولكن هذه الأيام الجميلة لم تدم طويلاً. فلم يمر كثير من الوقت حتى سمع المسلمون بخبر جيش العدو الذي خرج من

مكة. فقام النبي بجمع أصحابه، وسألهم عن رأيهم في طبيعة ملاقاة جيش قريش بإنتظارهم في المدينة أم الخروج إليهم.

كان المسلمون قد انتصروا في بدر، وأصبحوا بهذا أكثر قوة، وأكثر ثقةً بأنفسهم. لهذا أشاروا على رسول الله ﷺ وقالوا:

- نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم !

كان نبينا ﷺ يريد أن يبقوا هناك و يدافعوا عن المدينة. ولكنه لم يقل شيئاً عندما أتخذ أصحابه القرار بذلك. فذهب إلى بيته وارتدى لباس الحرب.

ندم الصحابة بعد ذلك. و ذهبوا إلى رسول الله، وقالوا له:

يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل.

ولكن نبينا ﷺ لم يكن ليرجع عن قرار اتخذه، وقال لهم:

- "ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته ـ أي درعه ـ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه".

وطلب منهم القيام بواجبهم لكي يكتب لهم النصر في هذه المعركة!

و بذلك بدأ المسلمون يستعدون لخوض المعركة.

الرُماة في غزوة أحد

اكتملت الإستعدادات. وخرج النبي ﷺ على رأس جيش قوامه ألف رجل. ولكنهم كانوا يعانون من قلة عدد الدواب. فكان معظمهم يسير راجلاً، وكان مصعب بن عُمير ﵁ يحمل الراية.

وعندما قطع الجيش نصف الطريق انتشر بين الجيش بلبلة وتوتر مفاجئ. فكان من بين صفوف الجيش رجل يدعى عبد الله بن أُبَي. وكان يستغل كل فرصة ليشيع الخلاف والشقاق بين المحاربين. وهذا ما فعله في هذه المرة أيضاً.

فبدأ يحرِّض المقاتلين، و يقول: كان يجب علينا أن نلتقي بالعدو في المدينة. فالحرب خارج المدينة أمر خطير للغاية. فاشتد الشقاق والخلاف بين المسلمين وخاصة بعد أن ناصره بعضهم في رأيه. وبالفعل استمال ابن أُبَي ثلاثمائة من المسلمين إلى جانبه ورجع بهم إلى المدينة مرة أخرى.

انخفض عدد المسلمين إلى سبعمائة مقاتل. و لم يكن هذا العدد يساوي حتى ربع عدد جيش قريش. و كان الجميع يتأججون غيظاً من عبد الله بن أُبَي.

على أية حال تمكن المسلمون من تخطي حالتهم المعنوية السيئة سريعاً، واستمروا في طريقهم تحت قيادة رسول الله ﷺ. بدأ جبل أُحُد يظهر، عندها بدأ الرسول يختار فصيلة من الرماة قوامها خمسون مقاتلاً. واختار لهم جبل عينين الواقع خلفهم ليستقروا فوقه. و كُلِّف هؤلاء الرماة بمنع المشركين من الإلتفاف من ناحية الخلف أثناء المعركة.

لم يمض وقت طويل عندما أقبل جيش المشركين تحت قيادة أبي سفيان. بدأ تسعة من المقاتلين من كلا الطرفين ينازل الآخر. وكانت الغلبة فيهم جميعاً للمجاهدين. فلم يطق أبو سفيان صبراً،



وصاح في مقاتليه قائلاً: "هجوم". فالتحم الجيشان. كان المسلمون يبلون بلاءاً حسناً على الرغم من قلة أعدادهم. و كان النبي ﷺ أقواهم جميعاً؛ فكان يجيد ركوب الخيل، ويستخدم السيف بمهارة.

وفي ذلك يقول علي رضي الله عنه:

"كنا نحتمي برسول الله حين يحمي الوطيس في المعركة. فكان يمدنا بالقوة"

و الحال أن علياً رضي الله عنه كان محارباً قوياً للغاية. فقد كان المسلمون كلهم يستمدون قوتهم من نبينا ﷺ.

شتت المسلمون جيش العدو، وكانوا على وشك إنهاء المعركة لصالحهم. وبدأ المشركون يفرون وقد مَلأهم الخوف. ولم يستمع منهم أحد لنداء أبي سفيان وهو يصرخ فيهم قائلاً:

" لا تتفرقُوا! استمروا في القتال!".

شرع المسلمون على الفور بتعقب الأعداء الفارين. فقد كان جنود العدو يفرون دون أن يلتفت أي منهم وراء ظهره. في تلك الأثناء صاح الرماة ظناً منهم أن الحرب قد انتهت، وقالوا:

- هُزِمَ العدو! فقال قائدهم: - مهلاً! إلى أين أنتم ذاهبون؟ ما كنا لنخرج عن أمر رسول الله.

فقال الرماة:

- ألا ترى لقد ترك العدو ماله في ميدان المعركة وهرب. لنذهب و نجمع ما خلفوا وراءهم.

فشل قائد الرماة في إثناءهم عما أرادوا. و لم يتبق معه سوى عدد قليل من الرماة.



شُهداء أُحُد

لم تكن الحرب قد انتهت تماماً. وكان تَركُ الرماة لمواقعهم هو الشيء الذي أراده العدو تماماً. فقد لاحظ جماعة من محاربي مكة أن الجبل أصبح خالياً من جنود المسلمين. فأسرعوا بالإلتفاف حول الجبل و قاموا بمحاصرة المسلمين. وسقط ما تبقى من الرماة فوق الجبل شهداءً.

استعاد جيش قريش شجاعته بعد أن رأى ما حدث. و عاد من فر منهم مرة أخرى إلى أرض المعركة. وفي لحظة واحدة استعاد الجيش الممزق تنظيم صفوفه. وبدؤا يقاتلون من جديد وقد ضربوا حصاراً على المسلمين.

أصيب المسلمون بذهول. وبدء جيش المسلمين يضطرب. فقد شعروا بالضعف في الوقت الذي ظنّوا فيه أنهم كسبوا المعركة تماماً. وأخذ المقاتلون يركضون هنا وهناك، وقد تفرقوا يميناً وشمالاً.

في تلك الأثناء أجهز عبدٌ يُدعى "وحشي" على سيدنا حمزة، فسقط شهيداً. كما جُرِحَ رسول الله ﷺ، وسال الدم من وجهه. فالتف حوله مجموعة من المسلمين يحاولون الذود عنه وحمايته. ورمت أم عمارة قربة المياه التي في يدها و أخذت سيفاً، وركضت تدافع هي الأخرى عن رسول الله ﷺ. وأصبح المسلمون في موقف عصيب.

في تلك الأثناء صاح أحد مقاتلي قريش ظناً منه أنه قتل نبينا ﷺ: - مات محمد! مات محمد!

كان لهذا الخبر وقع الصدمة على المسلمين الذين تفرقوا وتشتَّتت أوصالهم. وبدؤا يبحثون عن نبينا ﷺ وقد انتابهم الذعر. والشكر لله ﷻ أن محمداً ﷺ كان حياً. فارتفعت بذلك معنوياتهم. واستعادوا رباطة جأشهم، وأفقدوا هجمات العدو قوتها. وكان أبو سفيان لا يزال يعتقد أن رسول الله ﷺ قد مات. فسحب جنوده وصعد إلى مكان مرتفع. وكان المجاهدون قد تجمعوا في مكان مرتفع يقع في مواجهة المشركين. تملَّك الفضول أبا سفيان، فنادى المسلمين وسألهم: هل محمد بينكم؟

فصاح فيه سيدنا عمر رضي الله عنه، وقال:

- لم يمت رسول الله يا عدو الله. هو بيننا، يسمع ما تقول.

فقال أبو سفيان هذه المرة: - هذا يوم بيوم بدر والحرب سجال.

ألا لنا هُبَل و اللآت هما عون لنا.



أمّا سيدنا عمر رضي الله عنه فقال:

- الله ربنا! أما أنتم فلا رب لكم!

جمع أبو سفيان جنوده وانطلقوا عائدين إلى مكة. أمّا المسلمون فنزلوا إلى أرض المعركة كي يدفنوا شهداءهم.

حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً لموت عمه سيدنا حمزة.

وبكى لموته حتى جفت عيناه من الدموع.

لقد حلت هذه الكارثة بالمسلمين لأنهم لم يمتثلوا لأمر رسول الله ﷺ.

كلَّف ترك الرماة لمواقعهم، ونزولهم لجمع الغنائم الجيشَ ثمناً باهظاً. وكان الحزن يلفُّ الجميع.

سقط في هذه المعركة من المسلمين سبعون شهيداً.

كان من بينهم مصعب بن عُمير رضي الله عنه و هو أول معلم يتوجه إلى المدينة كي يعلم المسلمين القرآن الكريم. أمّا المشركين فقُتِل من صفوف جيشهم ما يزيد عن العشرين.

وقد أَنزل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة التالية حتى يزيل عن قلوب المسلمين ما يلفها من حزن، فقال عز وجل:

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٩)

إن الله عز وجل يمتحن المؤمنين بالنصر والهزيمة. فمن صبر على البلاء، كان صادقاً في أيمانه بالله عز وجل.



خَبر شُهداء الرّجيع

حدث ذلك في السنة الرابعة للهجرة...

شعر المسلمون بحزن شديد بعد معركة أحد. فقد جُرح الرسول ﷺ، واُستشهد حمزة ﵁. ولحق بقافلة الشهداء كذلك أكثر شباب المدينة فتوة مُصعب بن عُمير ﵁. فكانت المدينة تعيش بما فقدته أياماً حزينة. وكان نبينا الحبيب ﷺ في تلك الأيام منشغلاً بالتضرع إلى الله ﷻ بالدعاء، طالباً منه أن يمد المسلمين بالقوة والجَلَد.

وما حدث أن هزيمة المسلمين في أُحد جعلت القبائل المشركة التي تعيش في المنطقة المحيطة بالمدينة، تجترئ على المسلمين. وكان من بين أبناء هذه القبائل من لا يريد للإسلام أن ينتشر أوأن تكثُر أعداد المسلمين داخل قبائلهم.

أما نبينا الحبيب ﷺ فقد داوم على إرسال المعلمين من أهل الصُفَّةِ إلى القبائل المحيطة حتى يقوى الإسلام ويشتد. وكان هؤلاء المعلمون يُحدِّثون الناس في الأماكن التي يذهبون إليها عن الإسلام، ويعلمونهم كيف سيعيشون في نطاق ديننا.

كانت قبيلتا **عضل** **والقارة** تشعران بالضيق أيضاًمن انتشار الإسلام. ولم يكن أياً منهما يريد للإسلام أن يقوى ويشتد.ولكنهما لم يظهرا مع ذلك ما يضمرانه من سوء.

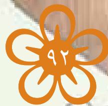
وفي يوم من الأيام أتى النبي ﷺ مجموعة من ستة أشخاص ينتمون إلى هاتين القبيلتين. وكذبوا على النبي ﷺ في قولهم:

يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين.

صدَّق نبينا الحبيب ﷺ ما قالوه. وقبل بما اقترحوا عليه. وبالفعل قام ﷺ باختيار عشرة من أهل الصُفَّة. وأرسلهم بصحبة هؤلاء الأشخاص الذين قدموا من هاتين القبيلتين كي يعلموهم الإسلام.

كان الطريق طويلاً، وشاقاً. فشعر المعلمون ومن يصطحبونهم بالتعب والإجهاد. فاتخذوا القرار بأن يستريحوا في مكان بجوار بئر ماء يُقال له "**الرجيع**".

وما حدث أن مجموعة من الرماة وصلت أعدادهم إلى المائة ظهرت في لحظة واحدة، وقاموا بمحاصرة المعلمين بشكل مباغت. لم يستوعب المسلمون ما يحدث لهم.



ولكن ما لبثت الحقيقة أن تكشَّفت أمامهم. فقد كان الأشخاص الذين جاءوا النبي وقالوا له:

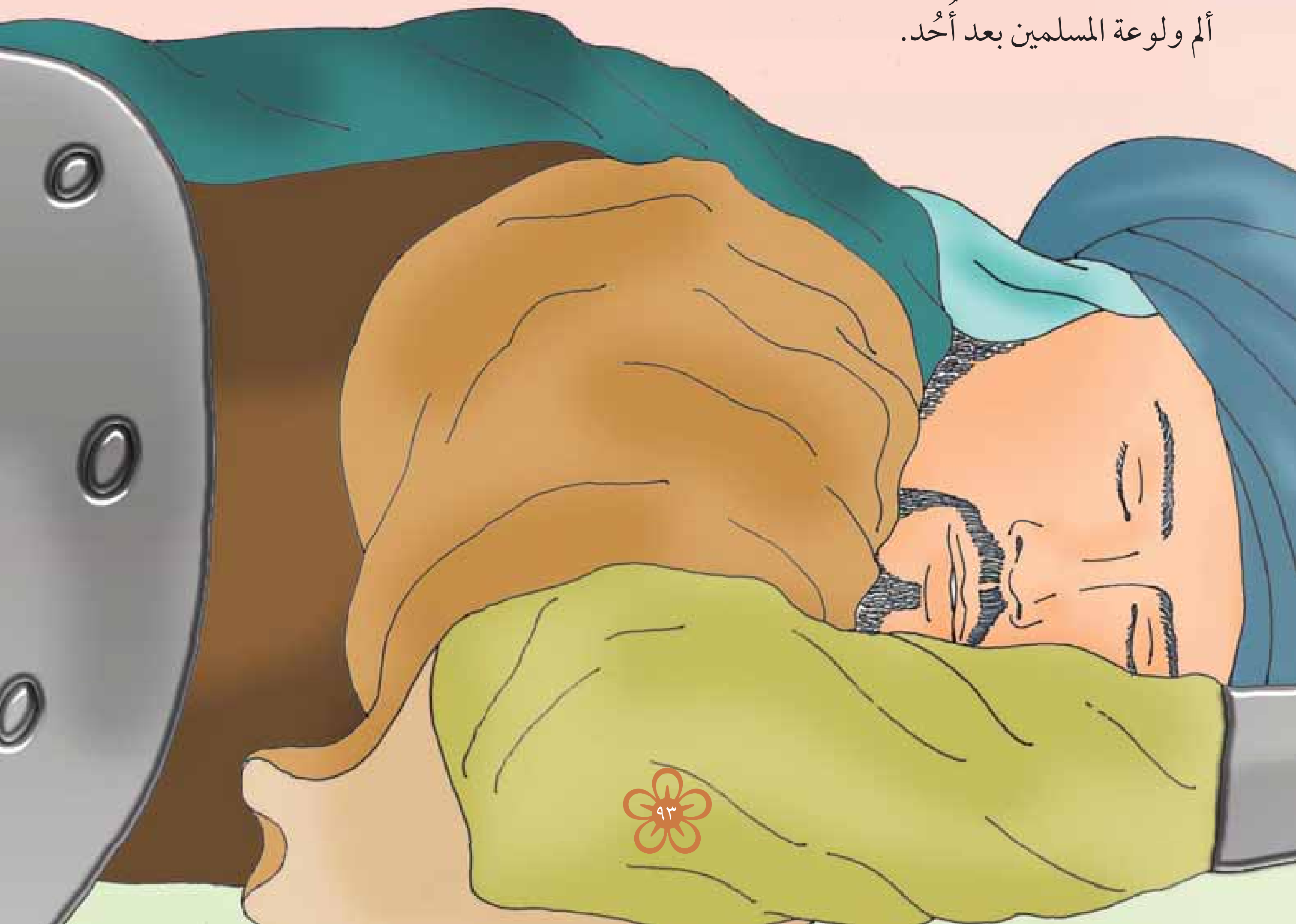
"ابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين".

كانوا هم أنفسهم أعداءً للإسلام. وقاموا بتسليم المسلمين دون أن تأخذهم رأفة بهم إلى هؤلاء المائة. وهنا اتضحت نيتهم؛ فقد كانوا يريدون قتل المسلمين لا تعلُّم الإسلام. أي أنهم نصبوا لهم فخاً.

ومع هذا فقد أبدى المسلمون شجاعة. ولم يستسلموا للرماة الذين جاؤا لقتلهم. فاستلوا سيوفهم على الفور وبدؤا يقاتلونهم. بيد أن أعداد العدوكانت كبيرة، وكان من الصعب مجابهتهم. فسقط سبعة من المعلمين شهداء على الفور. وأُسِرَ الثلاثة الباقون. ولم يلبث أن اُستُشهِد واحد منهم في الطريق. أما الاثنانِ الآخران فقد نُقِلا إلى مكة وهناك قام أبوسفيان ورجاله بقتلهما، ونالا الشهادة كذلك.

وبذلك لم يَنجُ أحد من المعلمين العشرة الذين خرجوا في سبيل تعليم الإسلام للناس، ولحقوا بالجنة جميعاً.

حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً لدى سماعه هذا الخبر. ودعا الله للشهداء. وزادت هذه الحادثة من ألم ولوعة المسلمين بعد أُحُد.



سبعون من حَفَظَة القرآن الكريم

حدث ذلك في السنة الرابعة للهجرة.

قَدِمَ أبوالبراء زعيم قبيلة نجد إلى المدينة بعد معركة أُحُد. وطلب من النبي ﷺ أن يبعث بمعلمين إلى قومه يعلمونهم أمور الإسلام. فخاف الرسول ﷺ أن يلحق بهم أذى.

ولكن أبوالبراء كان ممن يوثق بحديثهم. وكان قومه يخشونه، ولا يعصون له أمراً. لهذا السبب قال للنبي ﷺ أنه سيجير المعلمين ويحميهم. فوثق النبي ﷺ بما قاله أبوالبراء وأعد سبعين من الصحابة.

وكان عامر بن طُفيل وهوابن أخوأبوالبراء يتولى أمور القبيلة في الوقت الذي يغيب فيه عمه. فكتب النبي ﷺ رسالة إليه يطلب منه فيها أن يوفر الحماية إلى حفظة القرآن الكريم الذين أرسلهم إلى نجد.

كان هؤلاء السبعون جميعهم من أهل الصُفَّة. وكانوا يحفظون القرآن الكريم، ولحَفَظَة القرآن تأثير عظيم في نشر الإسلام، فضلاً عن حب الرسول الجم لهم واهتمامه الكبير بهم.

خرج المعلمون الحافظون لكتاب الله بصحبة أبوالبراء ورجاله. وفي طريقهم مروا على بئر يُقال له **"بئر معونة"**. ولأن الرحلة كانت طويلة، فآثروا أن يحطوا رحالهم ليستريحوا في هذا المكان. وبينما هم في ذلك، كان الشخص الذي يحمل رسالة النبي ﷺ مستمر في طريقه.

وما حدث أنهم ما إن أدركوا رأس البئر، إلا ووقع شيء سيء للغاية. فقد قام عامر بن طُفيل ومعه جيش كبير بمحاصرة المسلمين. لم يكلف عامر بن طفيل نفسه عناء قراءة الرسالة التي أرسلها إليه نبينا ﷺ، وتحرك



للهجوم على المسلمين. فقال له المسلمون:

- نحن المعلمون الذين أرسلهم رسول الله. ولم نأتي لنضر بأحد.

لم يجدي ذلك نفعاً معه. فقد كان ابن طفيل عدواً لدوداً للإسلام. كما لم يستمع لحديث عمه كذلك.

لم يكن أبناء قبيلة عامر بن طفيل أنفسهم يريدون قتل المسلمين، فقام بجمع المقاتلين من القبائل المجاورة. وأجهزوا بشكل مباغت على حَفَظَة القرآن الكريم، فاستشهدوا جميعاً. ولم يَنجُ من المسلمين سوى اثنين فقط. دعا المسلمون ربهم قبل أن يقعوا شهداء، وقالوا:

"ربنا! أبلغ رسول الله بحالنا، وأبلغه عنا السلام"

أخبر الله ﷻ نبينا الحبيب ﷺ برسالة عباده الأحباء. حزن رسول الله حزناً شديداً لموتهم. وقام بجمع أصحابه على الفور، وخاطبهم قائلاً:

"قتل المشركون إخوانكم. وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه" أو كما قال عليه الصلاة والسلام

لم يكن نبينا الحبيب ﷺ يريد لأحد أن يُصاب بمكروه مهما كان هذا الشخص. ولم يكن يعامل أحد بشكل سيء. وكان إذا دعا على أحد، كان يطلب من الله ﷻ أن يجزي هذا الشخص بما فعل. ولكنه حزن حزناً شديداً لموت سبعين من حفظة القرآن الكريم.

لهذا السبب ظلَّ شهراً كاملاً يدعوعلى من أقدموا على قتلهم. وطلب من الله ﷻ أن ينتقم منهم لفعلتهم هذه. وكان المسلمون في هذه الأثناء يرددون وراء النبي ﷺ ويقولون "آمين".

استجاب الله ﷻ لدعاء نبيه، وعندما حان الوقت أنزل عقابه بكل من قام بهذا الجرم واحداً واحداً.



الخندق

حدث ذلك في السنة الخامسة للهجرة...

أحب المسلمون دينهم حباً لا حدود له. وكانوا يفعلون كل ما بوسعهم حتى يعيش الإسلام وينتشر. ولم تنجح أي محنة مرواً بها أوتعرضوا لها في إثنائِهم عن هذا الدين.

ولم يكن هذا لِيَروق لليهود الذين كانوا يسكنون المدينة آنذاك. فقد رأوا أن أعداد المسلمين آخذةٌ في الإزدياد وبدأوا يشعرون بالخوف من أن يلحق بهم الضرر جرّاء ذلك.

لهذا السبب لم يلتزم اليهود وخاصة يهود بنو النضير بما تعاهدوا عليه مع المسلمين، وأخلّوا باتفاقهم مع رسول الله ﷺ، وأخذوا يخططون للخلاص منه.

بيد أنه ما لبث أن ذاع أمر اليهود وما يخططون لِفعله بين المسلمين. فأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم من بيوتهم خلال عشرة أيام.

ولكن اليهود رفضوا هذا الأمر ولم ينصاعوا له. فجهَّز نبينا الحبيب ﷺ جيشاً، وسار به إليهم. وأخرج يهود بني النضير الذين لم يلتزموا بما عاهدوا عليه من ديارهم.

توجه اليهود إلى القبائل المجاورة وسكنوا ديارها. وظلّوا يضمرون غضبهم للمسلمين بسبب إخراجهم من ديارهم.

وعلى الرغم من هذا فقد ظل في المدينة أناس ممن أعلنوا إيمانهم ظاهراً في الوقت الذي لم تؤمن فيه قلوبهم حقيقةً، وهم من أُطلِق عليهم اسم **"المنافقون"**. هؤلاء المنافقون هم من كانوا يخالطون المسلمين وقت الخير لفائدتهم، ويتخلون عنهم وقت المحن.

قرر اليهود أن يخوضوا حرباً مع المسلمين بالاشتراك مع المشركين والمنافقين. فتوجه زعماء اليهود إلى مكة وتحدثوا مع أبي سفيان عما يريدون فعله. واقترحوا أن يجهزوا معاً جيشاً ضخماً يُغيرون به على المدينة المنورة.



كانت قريش هي الخصم اللدود بالنسبة للمسلمين. وقام أبو سفيان على الفور بنشر الخبر في القبائل المجاورة وأعدَّ جيشاً ضخماً. واتخذ يهود بني النضير مواقعهم بين صفوف هذا الجيش الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل. وتوجه الجيش قاطعاً طريقه صوب مكة.

سمع المسلمون بهذا الخبر السيئ. وكيف لهم أن يجابهوا جيشاً بهذا الحجم؟ فتحدث سلمان الفارسي ﵁ وكان قد قدم في تلك الأثناء من بلاد فارس واعتنق الإسلام حديثاً، وقال:

- يا رسول الله، كنا في فارس نحفر خندقاً حول مدينتنا نتقي به العدو. فأذن لنا لنحفِرْ خندقاً على مشارف المدينة. فلا يستطيع الأعداء أن يدخلوا مدينتنا.

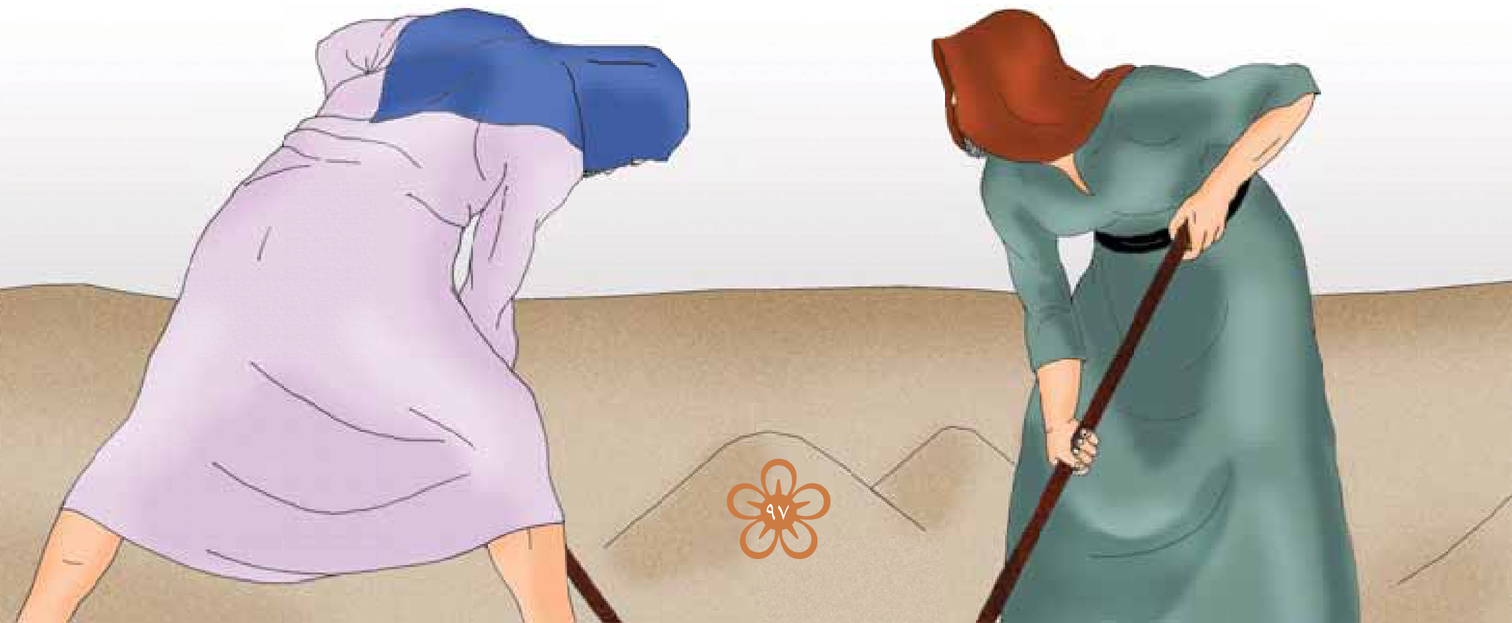
نالت هذه الفكرة إعجاب نبينا الحبيب ﷺ. وأصدر أمره للصحابة بالبدء في حفر الخندق، فالتقط كل منهم مجرفته، وشرعوا في حفر الخندق. وكان رسول الله ﷺ يلازم الذين يعملون ولا يغادرهم قط.

في تلك الأثناء كانت المدينة تشهد الجفاف "نقصاً في الطعام".

وكانت بيوت المسلمين تفتقر إلى الطعام. يُضاف إلى ذلك أن هذه الأعمال قد صادفت موسم الشتاء. فكان المسلمون يعملون بكلِ جِدٍّ وتَفانٍ كبير ببِطون نصف ممتلئة تحت البرد. أما المنافقون فلم يكونوا يبذلون جهوداً جادة في عملية الحفر. ولم يقترب أحدٌ منهم ليشارك في الحفر.

في هذا الوقت لم يشعر المؤمنون بالملل، وأخذوا يحفرون ليل نهار.

وفي النهاية انتهى حفر الخندق بعد ما عانوه من صعوبات بِحيث بلغ طول الخندق خمسة كيلومترات ونصف. وروعي في حفره كذلك أن يجمع بين العمق والإتساع في نفس الوقت.



غزوة الخندق

وصل أبوسفيان إلى مشارف المدينة بجيشه البالغ عشرة آلاف مقاتل. ولكنه لم يصدق عينيه بعد أن رأى الخندق الطويل الذي تم حفره حول المدينة. وهوالذي كان يظن قبل ذلك أنه سيحرق المدينة بجيشه القوي في عدة ساعات.

أخذ جنود المشركين يطوفون حول الخندق، ولكنَّ أحداً منهم لم يجد مكاناً ينفذ منه إلى الجانب الآخر. فحدث اضطراب بين صفوف الجيش. ولما أعيتهم الحيلة، قاموا بضرب خيامهم على الجانب الآخر من الخندق.

فَكَّر المشركون في اجتياز الخندق. ولكن المسلمين كانوا يمطرون كل من يقدم من الجنود على ذلك بوابل من السهام، ولم يعطوهم الفرصة لذلك. استمرت فترة انتظار جيش العدولعدة أيام نجح خلالها اثنان من الفرسان في اجتياز الخندق، بيد أن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ تمكن مع صديق له من القضاء عليهما بسرعة.

أخذت الأيام تمرُّ، الأمر الذي جعل أبا سفيان وجيشه يشعرون بحالة من الفتور، وانخفضت حماستهم. فكلما فشلوا في اجتياز الخندق كلما كان دخول المدينة أمراً مستحيلاً بالنسبة لهم. ظل الأمر على ذلك الحال طيلة شهر لم يصلوا خلاله إلى أي نتيجة. وكان الانتظار في جو بارد أمراً شاقاً.

بدأ أبوسفيان عندما تعذر عليه اجتياز الخندق، بدأ ضرب المدينة من الداخل.

كان يسكن المدينة قبيلة يهودية تدعي "**بنوقريظة**".

وكانت هذه القبيلة قد التزمت بما عاهدت المسلمين عليه. فأرسل إليهم أبوسفيان بعضاً من رجاله وطلب منهم العون. تحول يهود بنوقريظة إلى جانب المشركين، وأداروا وجوههم عن المسلمين.

ازداد أمر المسلمين صعوبة بذلك. وأصبح لزاماً عليهم أن يقاتلوا أعداءهم الذين يقفون على الجانب الآخر من الخندق، وأن يقاتلوا أيضاً بني قريظة الذين يعيشون داخل المدينة...



في تلك الأثناء كان الجوقارس البرودة، ولم يعد لدى المسلمين ما يتناولونه من طعام، كما ضعفت قوتهم. وكان من الممكن أن ينجح أبوسفيان في اجتياز الخندق في أي لحظة ومن ثم يدخل المدينة. بيد أن المسلمين كانوا يمطرون الأعداء بالسهام ببطولة، ويقاومون بني قريظة في الداخل.

وكان رسول الله ﷺ يدعوربَّه ﷻ من دون توقف، ويقول:

- "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ"

استجاب الله ﷻ لدعاء رسوله ﷺ. فهبت ريحاً باردة شديدة اقتلعت خيام المشركين، وذهبت بها. وأطفأت مواقدهم. وقلبت قدور طعامهم. وانزوت خيولهم ونياقهم في زاوية. وامتلأت أفواه المشركين وأنوفهم بالتراب. شعر جيش العدو بالدهشة والذهول لهول ما أصابهم. فقد تشتت معسكرهم، وسوي بالأرض. وبدء الجميع يهربون هنا وهناك وقد تملكهم الفزع والذهول لما يحدث. وأقسموا أنهم راجعون إلى مكة بمجرد أن تهدأ الريح.

أخذ المشركون طريقهم إلى مكة على عجل حتى أنهم لم يتمكنوا من جمع أغراضهم.

وفي صباح اليوم التالي كانت الريح قد هدأت تماماً. فعمت الفرحة جموع المسلمين عندما لم يروا أثراً لجيش المشركين. لقد استسلم العدو وذهب. وترك بالإضافة إلى ذلك الكثير من الغنائم التي آلت للمسلمين. تمر، وطعام، وجِمال، وسيوف، ودروع.

قُتل أربعة أشخاص من المشركين في هذه المعركة، وسقط خمسة شهداء من المسلمين.



بنو قريظة

عاش المسلمون أزمات وصعاب كبيرة أثناء غزوة الخندق. فكانوا يقاسون المجاعة وندرة الطعام في نفس الوقت الذي يتصدون فيه للأعداء. وارتكب يهود بني قريظة سوءاً كبيراً في حق المسلمين في تلك الأثناء كذلك. فقد أخلَّوا بما عاهدوا المسلمين عليه، واتحدوا مع أعداء المسلمين وكانوا يهجمون عليهم أيضاً. ولم يكن ما فعلوه لِيمر بدون حساب. فلا بد أن ينالوا جزاءهم.

وبالفعل تحدث نبينا ﷺ إلى أصحابه بمجرد أن انتهت المعركة، عن وجوب محاربة بني قريظة والدعوة للخروج إليهم.

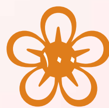
ولم يمر من الوقت الكثير عندما سار رسول الله بجيش إلى يهود بني قريظة.

فلما علم اليهود بقدوم المسلمين إليهم، قاموا على الفور بالتحصن داخل قلاعهم. وكانوا يظنون أنهم أصبحوا بذلك في مأمن عن المسلمين.

ولكن المسلمين كانوا قد عقدوا العزم على الأمر. فقاموا بمحاصرة قلاعهم. وأحكموا عليها الخناق.

شعر يهود بني قريظة بالندم على إخلالهم بعهدهم الذي عاهدوا المسلمين عليه. وطلبوا أن يُسمح لهم بالخروج والذهاب من المدينة.

ولكن رسول الله ﷺ لم يُلبِّ لهم ما أرادوا. لأن اليهود قد يلجؤن في هذه



المرة أيضاً إلى المشركين فيتحالفوا معهم ويعاودوا الهجوم على المسلمين. وطلب منهم بديلاً عن ذلك أن يستسلموا لهم.

لم يغادر اليهود قلاعهم عدة أيام قاوموا خلالها ولم يستسلموا. وكان الرماة يمطرون المسلمين من فوق القلاع بالسهام. ولكن ما لبث أن نَفد طعامهم وسلاحهم. ولم يعد لديهم قدرة على التحمل.

وفي النهاية أعلنوا استسلامهم بعد مرور خمسة وعشرين يوماً. فعرض عليهم رسول الله ﷺ أن يعفوعنهم ويدخلوا الإسلام.

ولكن اليهود لم يقبلوا بهذا العرض. ولم يدخل الإسلام منهم سوى أربعة أشخاص.

أما الباقون فأرادوا أن يكون الحكم بينهم وفقاً لأحكام التوراة.

و"التوراة" هي اسم الكتاب الذي نزل على سيدنا موسى عليه السلام.

فاليهود يؤمنون بسيدنا موسى عليه السلام.

ولكنهم أفسدوا في الوقت نفسه الدين الذي جاء به موسى عليه السلام، وحرَّفوا جزءً كبيراً منه.

يضاف إلى ذلك أنهم كانوا ينتظرون أن يخرج النبي ﷺ من بينهم هُم.

وعندما جاءت النبوة إلى سيدنا محمد ﷺ، حقدوا عليه ولم يقبلوا بنبوته.

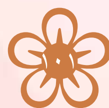
رغبوا في أن ينالوا جزاءهم وفق أحكام التوراة.

فقبل رسول الله ﷺبذلك. وأخذ نساءهم وأولادهم أسرى لديه.

أما الذكور فتم معاقبتهم بالقتل.

وبذلك يكون يهود بني قريظة قد دفعوا أرواحهم ثمناً لإهانتهم المسلمين.





صلح الحديبية

مرت ست سنوات على هجرة نبينا الحبيب ﷺ إلى المدينة.

أخذت أعداد الذين يدخلون في دين الله ﷻ تتزايد على الرغم من كل العوائق التي كان يضعها المشركون، فأشتد الإسلام وقوي بمرور الوقت. في ذلك الوقت كان المسلمون قد اشتاقوا لأرضهم ووطنهم الذي ولدوا وكبروا فيه، ثم تركوا كل شيء وجاءوا إلى المدينة. وفي يوم من الأيام ساق رسول الله ﷺ وكان يعلم ذلك الأمر جيداً، ساق البشرى لأصحابه بأنه سيزور بيت الله في وقت قريب للغاية.

عاش المسلمون مع هذا الخبر سعادة العيد. وبدؤا يعدون العدة للطريق. فزيارة الكعبة عبادة مهمة للغاية. وهي شرط رئيس لتأدية فريضة الحج في أشهر الحِج بشكل سليم. أما زيارتها فيما هو دون ذلك، فهذا ما يُطلق عليه اسم "العُمرة".

من أجل هذا كان نبينا الحبيب ﷺ يريد أن يؤدي العُمرة مع أصحابه. ولم يكن ذاهباً لحرب أحد. فقط أرادوا الذهاب لزيارة بيت الله والعودة إلى المدينة مرة أخرى.

كان عدد المسلمين يربو على الألف وأربعمائة. ارتدوا جميعاً الملابس البيضاء لتأدية العمرة. وخرجوا ببهجة قاصدين مكة. ولم يأخذوا معهم سوى سيوف السفر على سبيل الإحتياط.

كانت المسافة بين مكة والمدينة بعيدة للغاية. غَضب أهل مكة لدى سماعهم خبر قدوم المسلمين وظنوا أنهم جاؤا لحربهم، فبادروا بإرسال من يستطلع لهم الأمر.

حط نبينا الحبيب ﷺ وأصحابه رحالهم في وادي يُقال له **الحُديبية**. وأرسل إلى قريش سيدنا عثمان رضي الله عنه وهومن أقرب الصحابة إليه.





كان عثمان ﵁ صهر النبي ﷺ، وكان له الكثير من الأقارب في مكة كذلك.

من أجل ذلك كان نبينا ﷺ يأمل أن يستمع إليه أهل مكة. ولكن ما حدث هوأنهم أعرضوا عنه ولم يستمعوا إليه. وقالوا له:

- لن نأذن للمسلمين بدخول مدينتنا. أما أنت فذو شأن فينا. فَطُف بالبيت كما شأت وحدك.

لم يقبل سيدنا عثمان ﵁ أن يزور الكعبة بدون نبينا الحبيب ﷺ.

من ناحية أخرى كان المسلمون ينتظرون بلهفة الأخبار التي سيأتي بها سيدنا عثمان ﵁. ولكن تأخر مجيئه. ولم يمر وقت طويل حتى سرت أخبار مفادها أن عثمان ﵁ قد قُتِل.

حزن المسلمون حزناً شديداً لدى سماعهم هذه الأخبار، وتجمَّعوا على الفور حول رسول الله ﷺ. وأقسموا أن يقاتلوا قريشاً التي قتلت عثمان ﵁. ووضعوا أياديهم فوق يد النبي ﷺ وبايعوه فيما عُرف باسم "**بيعة الرضوان**".

شعر أهل قريش بالقلق لدى سماعهم أن المسلمين أقسموا أن يقاتلوا مكة. وفي الوقت الذي بدأ فيه الجيش بالتحرك باتجاه مكة حدث شيء يدعو إلى الدهشة. فقد قدم عثمان ﵁ ومعه جماعة من قريش. وكان هذا يعني أنه لم يُقتل. أشار سيدنا عثمان ﵁ إلى زعيم الوفد وقال:

- ترغب قريش لوعقدت معنا صلحاً.

استقبل نبينا ﷺ عرض الصلح الذي تقدمت به قريش بشكل إيجابي. وفي ذلك اليوم تم عقد صلح بين المسلمين وأهل قريش.

وقد جاء في شروط صلح الحديبية أن يرجع المسلمون هذا العام ويعودوا في العام القادم. حزن المسلمون كثيراً أن يعودوا مرة أخرى دون أن يتمكنوا من رؤية الكعبة. ولكن سيدنا رسول الله ﷺ كان يفكر في ضرورة عقد هذا الصلح في الوقت الحالي. وهوالذي ستتضح أهميته بشكل أكبر في السنوات التالية.





الرسائل

عاد المسلمون إلى المدينة بعد صلح الحديبية.

كان نبينا ﷺ يريد أن يسمع الناس بالإسلام في كل مكان هنا وهناك. لهذا السبب قام أيضاً بإرسال خطابات إلى ملوك الدول البعيدة دعاهم فيها إلى دين الله ﷻ.

أظهر بعضاً من هؤلاء الملوك اهتماماً بهذه الخطابات، وكان من بينهم من اعتنق الإسلام. أمّا البعض الآخر فلم يرغب أن يسمع حتى بهذا الدين.

ليس هذا فحسب بل وسخروا كذلك من نبينا ﷺ والإسلام. ونظروا إلى كونهم ملوكاً وتبجحوا. لم يوقروا الله ﷻ الواحد القوي.

والحقيقة هي أن الله ﷻ هو من يُعطي المُلْكَ

للنّاس وهو أيضاً من يأخذه منهم.

ولكن هؤلاء التعساء من

الملوك لم يريدوا أن

يفهموا ذلك.



وضع نبينا الحبيب ﷺ خاتمه على الرسائل التي بعث بها.

و" الخاتم " هو التوقيع.

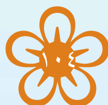
وقد خُطَّ على الخاتم عبارة "محمد رسول الله".

وكان النبي ﷺ يرسل رسائله مُذيلةً بهذا الخاتم.

بذلك سمع الناسُ في كل مكان بديننا العظيم.

وبدؤا يتساءلون في أنفسهم عن الإسلام الذي لا يعرفون عنه شيئاً. تُرى ما هذا الدين؟

وهل سيجلب لهم السعادة؟



لأن كل إنسان يود لو أصبح سعيداً. بيدَ أن أحداً منهم لم يكن سعيداً بالقدر الكافي.

لأنّ ملوك البلدان التي يعيشون فيها لم يعاملوا شعوبهم بشكل حسن. فانتشر الظلم والتجبُّر في كل مكان. ولم يتورع الناس عن الإساءة لبعضهم البعض.

أما المسلمون فكانوا أفضل الناس على الأرض. يحب بعضهم بعضاً، ولا يظلمون بعضهم. لأن كل منهم أخ للآخر. وكان نبينا الحبيب ﷺ يقول أن:

"المسلم أخو المسلم" في الدين.

وكان نموذج الأخوة هذا يثير غيرة وحسد الجميع حتى المشركين. وكانوا يتحيرون من أمر المسلمين كلما رأوا ما بينهم مِن وحدة وتماسك. كان خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو أحد أعظم قادتهم قد تأثر هو الآخر بشدة من رباط المحبة الموجود بين المسلمين.

وفي يوم من الأيام فر هو الآخر من مكة وتوجه إلى المدينة. وكان معه صديقه عمرو بن العاص أيضاً. وعندما وصلا إلى المدينة قالا لأهلها أنهما يريدان أن يريا نبينا ﷺ ويعتنقا الإسلام.

سعد المسلمون كثيراً بسماع هذا الخبر. وقاموا على الفور باصطحاب الضيفين إلى نبينا ﷺ الذي استقبلهما هو الآخر مبتسماً.

نطق خالد وعمرو رضي الله عنهما بكلمة الشهادة ولحقا بالمؤمنين.

وبذلك ازداد المسلمون قوة بهذين الرجلَين العظيمَين.



فتح خيبر

كان ذلك في العام السابع من الهجرة...

خيبر مدينة يهودية كبيرة تقع إلى الشمال من المدينة. استقر في هذه المدينة اليهود الذين أخرجهم الرسول ﷺ من المدينة قبل ذلك. لم يكن أهل خيبر يحبون المسلمين على الإطلاق. وهم أيضاً الذين اشتركوا مع اليهود الآخرين في معركة الخندق.

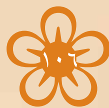
أما نبينا الحبيب ﷺ فكان يرى بضرورة عمل معاهدة بين المسلمين وأهل خيبر. وكان يريد من وراء ذلك إيقاف الهجمات التي يقومون بشنها على المسلمين. أرسل النبي ﷺ رسولاً إلى خيبر يعرض عليهم الصلح. ولكن اليهود لم يكونو القوم الذين يسعون إلى السلام. لأنهم كانوا يرغبون في الاتحاد مع القبائل اليهودية الأخرى، ومحاربة المسلمين.

لم يمر وقت طويل عندما سمع أهل المدينة أن اليهود يعدون العدة لحربهم. فتحرك المسلمون بناءاً على أمر من نبينا ﷺ. وأخذوا طريقهم باتجاه خيبر. حط المسلمون رحالهم بعد أن قطعوا شوطاً طويلاً في مكان يُقال له "الرجيع". وكان المساء قد حَل. وكان مِن عادة رسول الله ﷺ أنه لا يحارب ليلاً إذا نزل في مكان بقصد الحرب، بل ينتظر حتى الصباح.

زحف الجيش تحت قيادة نبينا ﷺ بعد صلاة الفجر باتجاه خيبر. أُصيب اليهود بالفزع عندما خرجوا من ديارهم صباحاً ورأوا المسلمين في مدنهم. وصاحوا وهم يتسابقون هاربين:

- جُند محمد! جُند محمد قادمون!..





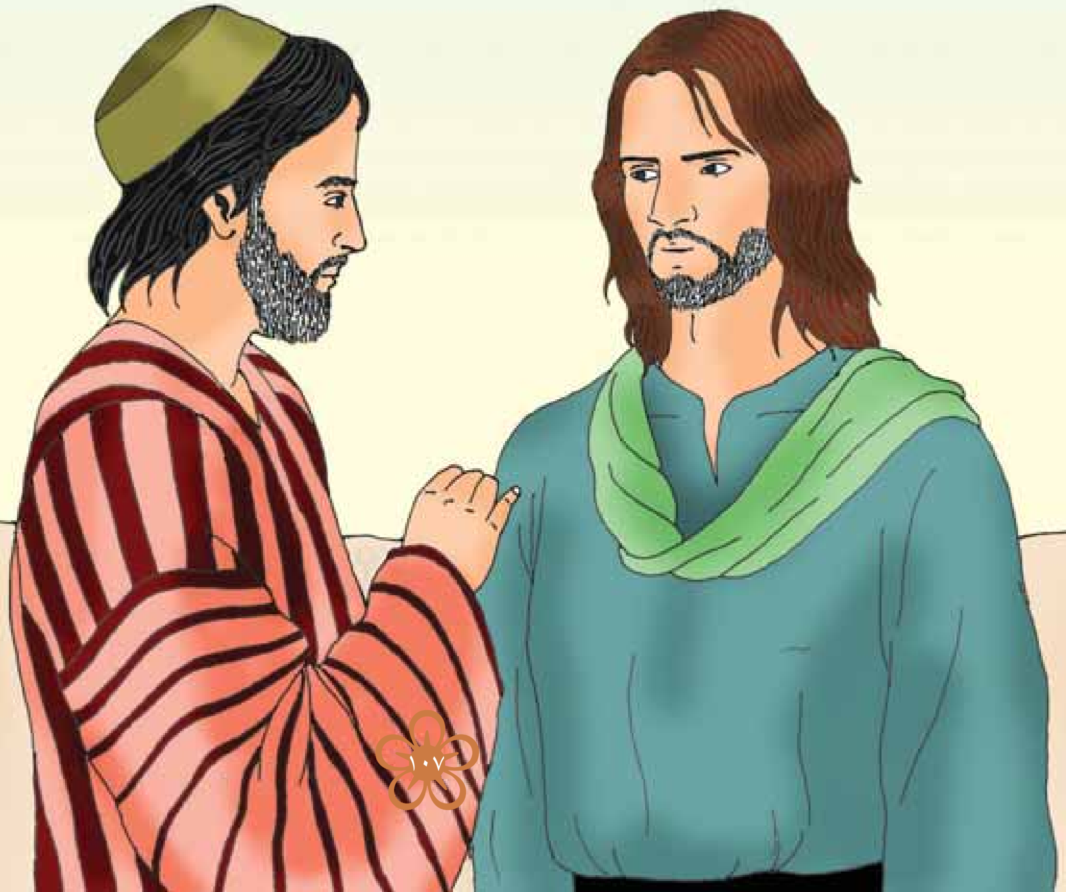
أسرع اليهود جميعهم بالاحتماء في قلاع خيبر السبعة. كانت القلاع كلها منيعة حصينة للغاية. وكان اليهود يدخرون فيها الطعام والسلاح. كانوا يثقون بهذه القلاع تماماً، ويعتقدون في عدم قدرة أي جيش على اجتيازها.

ولكن المسلمين كانوا قد عقدوا العزم هذه المرة على إنزال الجزاء باليهود الذين يناصبونهم العداء في كل فرصة تسنح لهم. قام المجاهدون بمحاصرة القِلاع. وأخذوا يحاربون طيلة عشرين يوماً من أجل الدخول إلى هذه القلاع. وفي النهاية نجحوا في دخول ستة منها. ولم يتبق سوى قلعة واحدة هي قلعة قاموص التي عُرف عنها أنها أشد قلاع اليهود تحصيناً. وكان قائد هذه القلعة رجلاً قوياً لم يستطع أحد حتى ذلك الوقت هزيمته.

كلّف نبينا الحبيب ﷺ سيدنا علي رضي الله عنه بالقيام بهذه المهمة. استل سيدنا علي رضي الله عنه سيفه وتقدم أمام القلعة. ونادى واحداً ممن بداخل القلعة لينازله خارجها.

في تلك الأثناء خرج من القلعة ذلك القائد اليهودي القوي. كان يظن أنه سيطرح سيدنا علي رضي الله عنه أرضاً بضربة واحدة من سيفه. ولكن سيدنا علي رضي الله عنه انقض عليه مثل الصاعقة. وقتل خصمه بعد أن نازله بشجاعة. استسلم اليهود خائفين بعد أن رأوا قائدهم ملقى على الأرض. وبذلك سقطت القلعة الأخيرة أيضاً.آلت خيبر ليد المسلمين. وقبلوا أن يعملوا أجيرين في أرضهم، ثم يقوموا من بعد ذلك بإعطاء المسلمين نصف محاصيلهم التي يجمعونها من حقولهم.

انتهت معركة خيبر بنصر المسلمين. استشهد في هذه المعركة من جانب المسلمين خمسة عشر رجلاً، ومات من بين صفوف اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.



معركة مؤتة

كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة...

استمرت الرسائل التي كتبها نبينا الحبيب ﷺ للملوك. فقام كذلك بكتابة رسالة إلى والي بُصرى وكانت تقع تحت الحكم البيزنطي. دعا النبي ﷺ في رسالته الوالي وشعبه للدخول إلى الإسلام. وبعث رسولاً من قبله يحمل هذه الرسالة. التقى الرسول المسلم بوالي بُصرى في مدينة مؤتة وسلَّم الرسالة التي جلبها معه من نبينا ﷺ.

ولكن ما حدث أن والي مؤتة أمر بقتل الرسول بعد أن قرأ رسالة نبينا ﷺ. وكان هذا أمراً غريباً لم يعهده أحد حتى ذلك اليوم. "فالرسول" ليس إلا شخص ينقل الخبر لذا لم يقدم أحد من قبل على قتل الرسل. فَقَتْلُ أي رسول يعني إظهار الاحتقار وعدم الاكتراث بمن أرسل الرسالة.

حزن نبينا الحبيب ﷺ حزناً شديداً لدى سماعه بمقتل الرسول. وقام بتجهيز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ودفع به إلى مؤتة. وعقد الراية لثلاثة منهم وجعل إمرتهم بالتناوب ، فقال ﷺ:

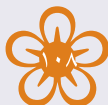
"إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة" رواه البخاري ومسلم

طلب والي بُصرى الذي علم بقدوم المسلمين، طلب العون من الإمبراطورية البيزنطية. وخرج لملاقاة المسلمين على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل.

التقى الجيشان في مدينة مؤتة. شعر المسلمون للحظة بالحيرة عما يمكنهم القيام به عندما وقفوا وجهاً لوجه أمام جيش كبير العدد.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت حرب طاحنة. تقدم أحد قادة المسلمين وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه يحمل الراية في يده. اصطدم بجرأة بآلاف المحاربين. هزم عدداً كبيراً منهم ولكنه سقط شهيداً بين رماح العدو.

أخذ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الراية بعد أن اُستشهد زيد. أظهر جعفر رضي الله عنه كذلك بطولة عظيمة. وبينما هوعلى ذلك قُطعت يده اليمنى، فأمسك الراية بيده اليسرى. فقُطِعت يده اليسرى كذلك، فاحتضن الراية بذراعيه. ثُم سقط جعفر رضي الله عنه شهيداً وهويحارب حتى النفس الأخير على الرغم مما أصابه من جراح كثيرة.



أخذ عبد الله بن رواحة ﷺ الراية بعد استشهاد جعفر. حارب عبد الله بن رواحة كذلك ببطولة وهوينشد الشعر. أقسمت يا نفس لتنزلن_ لتنزلن أو لتُكرَهنَّ

إن أجلب الناس وشدوا الرنَّة_ ما لي أراك تكرهين الجنة

أخذت الدماء تسيل من جسده الذي أصيب بطعنات كثيرة. وسقط في النهاية شهيداً هوالآخر.

كان لاستشهاد القادة الثلاثة أثرٌ كبيرٌ في انخفاض الروح المعنوية لدى الجيش. تسلم خالد بن الوليد ﷺ قيادة الجيش. وبدأ يحارب بجرأة وشجاعة حتى تمزقت في يده ذلك اليوم تسعة سيوف.

توقفت الحرب بحلول المساء. فقام خالد بن الوليد ﷺ ليلاً بإعادة تنظيم صفوف الجنود. فغيَّر من أماكن الجنود بحيث جعل من في المقدمة في الخلف، وجعل مؤخرة الجيش مقدمته، وجاء بميمنته ناحية اليسار، وحرك الميسرة ناحية اليمين.

وعندما كان صباح اليوم التالي قام خالد بن الوليد بالمبادرة بالهجوم على العدو. أصاب الذهول العدوعندما لم يجد أمامه الأشخاص الذين كان يحاربهم بالأمس. وظنوا أن ثمة مدد أوعون جاء إلى المسلمين خلال فترة الليل، فانسحبوا وقد أصابهم الرعب.

فقد المسلمون في هذه المعركة الطاحنة اثني عشرة شهيداً. وشعروا بحزن عميق لفقدهم أصدقاءهم الذين أحبوهم كثيراً.

وعلى الرغم من هذا فقد نجح المسلمون بقيادة خالد بن الوليد في هزيمة جيش ضخم. وكانت هذه هي أول معركة يشارك فيها خالد بن الوليد بعد اعتناقه الإسلام. فكان قائداً عظيماً.



صوب مكة

حدث ذلك في السنة الثامنة للهجرة.

كان قد مر عامان على صلح الحديبية. وفي يوم من الأيام وبينما نبينا الحبيب ﷺ يجلس في المسجد، جاءه أربعون رجلاً ينتمون إلى قبيلة خزاعة التي تقع بالقرب من المدينة. وتحدث قائدهم إلى النبي ﷺ، وقال:

- يا رسول الله، باغتتنا قبيلة بني بكر وهجمت على ديارنا ليلاً. وقتلت منا ثلاثة وعشرين شخصاً. أمّا من ظلَّ على قيد الحياة فنجى بحياته بأعجوبه. وقد علمنا أن قريشاً قد ساعدتهم على ذلك.

حزن رسول الله ﷺ كثيراً لما سمعه منهم. فأهل خزاعة يقفون دائماً إلى جانب المسلمين، وهم أناس عُرفوا بصدقهم. وكان رسول الله ﷺ يحمي هذه القبيلة دائماً. ويمتنع أهل قريش وفقاً لبنود صلح الحديبية عن الهجوم عن أي من المسلمين. وبذلك يكونوا قد أخلوا ببنود هذا الصلح.

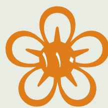
تحدث نبينا الحبيب إلى الذين قدموا إليه، وأخبرهم أنه سيقوم بمساعدتهم.

بعث رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى قريش يطالبهم بفدية حرب لأنهم لم يلتزموا بما عاهدوه عليه. ولكن أهل قريش لم يعيروا حديث النبي ﷺ اهتمامهم. واستمروا في عداءهم للمسلمين كما فعلوا مع أهل خزاعة.

بدأ سيدنا رسول الله ﷺ بسبب هذا الموقف في إعداد العُدة لحرب قريش. ولم يخبر أي شخص بالمكان الذي ينوي التوجه بالجيش إليه. وطلب العون بالإضافة إلى هذا من القبائل المسلمة الأخرى. واستطاع في زمن قصير تجهيز جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد.

خرج الجيش في شهر رمضان وكان يوماً حاراً. وانضمت إلى الجيش في الطريق أعداد أخرى ليرتفع عدده بذلك إلى اثنا عشر ألف مجاهد.

لم يكن رسول الله ﷺ يرغب في أن تعلم قريش بخبر مجيئهم، ومن ثم يعدون العدة للحرب. لهذا السبب لم يخبر أحداً بأنه ذاهب إلى مكة إلاّ بعد أن قطعوا منتصف الطريق إلى هناك. كان النبي ﷺ يرغب في دخول مكة بدون حرب. لهذا السبب ظلَّ يدعو طيلة الطريق، بأن يعمي الله عيون قريش وأسماعهم عنهم فيدخلون مكة .....



إقترب جيش المسلمين من مكة بعد رحلة استمرت أياماً. ولما أقبل المساء حط المسلمون رحالهم وأوقدوا النيران أمام خيامهم. وأمضوا ليلتهم داعين متعبدين لله ﷻ.

لاحت النّار التي أوقدها المسلمون لأهل مكة من بعيد فشعروا بخوف شديد وظنّوا أن هناك جيش عدو ضخم.

لم يمض وقت طويل حتى علموا أن الذين قدموا إليهم كانوا المسلمين. لم يهدأ لقائدهم أبي سفيان بال، وقرر أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويتحدث معه. فامتطى فرسه على الفور وذهب إلى المكان الذي نزل به المسلمون. بدا أبو سفيان عندما رأى جيش المسلمين كمن عُقد لسانه. أفصح أبو سفيان عن رغبته في التحدّث مع رسول الله ﷺ.

استقبل نبينا الحبيب ﷺ أبا سفيان باسم الوجه. طلب أبو سفيان أن يعقد صلحاً مع نبينا الحبيب ﷺ. فقال له النبي ﷺ أنهم لن يحاربوا أحداً طالما لم يتعرض أحد لهم وقت دخولهم إلى مكة. فمن دخل داره وأغلق عليه بابه فهوآمن. ثم قال له:

- من دخل دار أبي سفيان فهوآمن ومن أغلق عليه داره فهوآمن ومن دخل الكعبة فهوآمن.

أدرك أبوسفيان أنهم حتى لو دخلوا في حرب مع المسلمين فسيُهزمون لا محالة. ورجع إلى مكة، وقص على أهل مكة ما قاله له نبينا ﷺ.



دخول مكة

قام نبينا ﷺ بتقسيم الجيش قبل الدخول إلى مكة إلى أربعة فرق. واختار قائداً لكل فرقة منه، وحدد المكان الذي ستدخل منه. ونهى عن سفك الدماء وأن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم.

دخل المسلمون إلى مكة من أربعة جهات. وكان رسول الله ﷺ يتقدم راكباً فوق ناقته وقد نكّس رأسه مظهراً أعلى درجة من التواضع. كان يشكر ربّه، فقد آلت إلى المسلمين مكة التي أُجبروا على الخروج منها قبل ثمان سنوات. كان الصمت يخيم على المكان. وقد لزم كل شخص داره. أما المسلمون فكانوا يتقدمون إلى الأمام رافعين أصواتهم بالتكبير.

في تلك الأثناء كان بالكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، كان أهل مكة يضعون أكبرها ويسمونه هُبل فوق الكعبة. كما كانت الكعبة ممتلئة بالأصنام من الداخل أيضاً. بدأ رسول الله ﷺ يحطم الأصنام واحداً تلوالآخر بعصاً كانت في يده وهويقول: ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

في تلك الأثناء خرج المشركون من ديارهم وقد أدركوا أن المسلمين لن يمسوهم بأذى، وتجمعوا حول الكعبة. كانوا يتطلعون مشدوهين إلى الأصنام التي تحولت إلى حطام. لقد تحولت الآلهة التي ظلوا يعبدونها حتى الأمس إلى كومة من الحجارة.



دخل نبينا الحبيب بعد ذلك إلى الكعبة، وقام بتكسير ما بها من أصنام. وبذلك تم تطهير بيت الله من الأصنام.

عاش المسلمون هذه اللحظة دامعي العيون مهنئين بعضهم بعضاً. أما أهل قريش فكانوا ينتظرون خائفين حزينين. كانوا يترقبون القرار الذي سيصدره رسول الله بشأنهم.

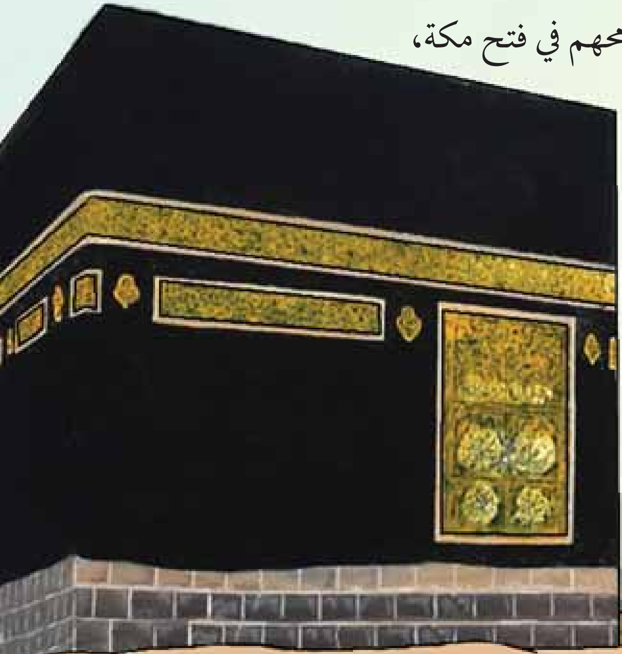
صلى نبينا الحبيب مع أصحابة في الكعبة، وطاف بها. وكان يقول وهويطوف حول الكعبة:

– لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

ثم التفت إلى أهل قريش وقرأ الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، ١٣)

كان نبينا الحبيب ﷺ يحب العفوعن الناس دائماً. فلم يضمر يوماً الحقد لأهل مكة الذين أخرجوه من وطنه، ولم يُنزل بهم العقاب.



تحول عددٌ كبيرٌ من مشركي مكة الذين رأوا قوة المسلمين وتسامحهم في فتح مكة، تحولوا إلى الإسلام، وبايعوا رسول الله ﷺ.

كان رفع الأذان في الكعبة بعد ما تم تطهيرها من الأصنام واحدة من اللحظات التي لا يمكن نسيانها في أحداث فتح مكة.

طنت سماء مكة بصوت الأذان الذي رفعه بلال بصوته العذب.

كان المسلمون الذين أُجبروا على الهجرة من وطنهم قبل أعوام، كانوا يتوجهون بالشكر إلى الله ﷻ.

فقد فتحوا البلد المبارك مكة.



غزوة تبوك

وقعت في شهر رجب العام التاسع للهجرة.

هي آخر غزوة خاضها الرسول ﷺ؛ بدأت حينما خطط الرومان لإنهاء القوة الإسلامية التي أخذت تهدد الكيان الروماني المسيطر على المنطقة.

وصلت الأنباء إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل...

عندها أمر النبي ﷺ الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى قبائل العرب وأهل مكة يستنفرهم، وأخبر الناس بمسيره. وذلك لإدراكه بُعد المسافة وطبيعة العدوّ وحجم إمكاناته ، مما يُعطي الجيش الفرصة الكاملة لإعداد ما يلزم لهذا السفر الطويل.

وكان الوقت صيفاً، والصحراء تحترق ناراً، ويسود البلاد حالة من الجدب والقحط، والنّاس تحبّ أن تبقى تحت الظلال، خاصة وأنَّ محنة مؤتة لـم تكن بعيدة عن الأذهان.

وبالرغم من كلِّ ذلك، استقبل جماعة من المسلمين هذه الدعوة بقلوب عامرة بالإيمان ونفوس مطمئنة بما وعد اللّه ﷻ به المجاهدين، تاركين نساءهم وأبناءهم ليقطعوا الصحارى والفيافي،

حثَّ النبي ﷺ الناس على الإنفاق في سبيل الله قائلاً :

"من جهّز جيش العسرة فله الجنة" رواه البخاري

فاستجاب الصحابة لندائه ، وضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء ، فأما عثمان بن عفان رضي الله عنه



فتصدق بثلاثمئة بعير بأقتابها وأحلاسها، ومئَتي أوقية ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول:

"ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم"

ثم تصدق حتى بلغت صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود، وجاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر ﷺ بماله كله أربعة آلاف درهم، وجاء عمر ﷺ بنصف ماله، وتتابع الناس كلٌ بما يستطيع حتى أنفقوا مُدّاً أو مُدَّين، وبعثت النساء من حليّهن ما استطعن.

أما المنافقون فقد تخلّف معظمهم عن الغزو ، وقاموا بادّعاء الأعذار الكاذبة، فمنهم من اعتذر بعدم القدرة على السفر، ومنهم من اعتذر بقلّة المتاع، ومنهم من اعتذر بشدّة الحرّ، ومنهم من اعتذر بإعجابه بالنساء، وخوف الفتنة بنساء الروم ، فقبل النبي ﷺ أعذارهم ، أنزل الله آياتٍ في سورة التوبة تفضح أمرهم، وتكشف حقيقة كذبهم ، وتنذرهم بالعذاب الأليم.

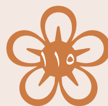
بدأ المسلمون سيرهم، وقطعوا آلاف الأميال عانوا خلالها العطش والجوع والحر ومن قلّة وسائل الركوب، وقد سميت الغزوة "غزوة العسرة"، وقالوا إنَّها جاءت عسرة من الماء وعسرة من الظهر، وعسرة من النفقة، وما إلى ذلك، وفي ذلك قال الله ﷻ:

﴿**لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة..**﴾ (التوبة،١١٧)

وكان قوام الجيش ثلاثون ألف مقاتل، ونزلوا في تبوك فعسكروا بها، وقام النبي ﷺ في الناس خطيبًا، فخطب خطبة بليغة، وبلغ الرومان وحلفاؤهم ذلك الزحف المبارك فأخذ منهم الرعب كل مأخذ، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء بل تفرقوا في بلادهم لا يلوون على شيء، فصالح ﷺ بعض ملوكهم على الجزية وانحاز حلفاء الرومان من قبائل العرب كغسان إلى المسلمين، فتوسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود دولة الرومان.

وبعد أن تحقّق المقصود من الغزو ، عاد الجيش الإسلاميّ إلى المدينة، فلما اقترب منها خرجت جموع النساء والأطفال لاستقبال النبي ﷺ والإطمئنان على سلامته ، ثم توجّه النبي ﷺ إلى مسجده وصلّى فيه ركعتين، ثم جلس مع الناس .

إن ذلك الجيش المبارك الذي أنزل الرعب في قلوب أعظم قوة على وجه الأرض هو جيش الآباء والأجداد، ما حملوا من العتاد أعنفه، ولا من الزاد أكمله، ولكنه الإيمان يعمل في النفوس فيصنع الرجال.



حِجة الوداع

حدث ذلك في السنة العاشرة للهجرة.

كان الإسلام ينتشر سريعاً. ولم يعد هناك ثمة أحد لم يعرف أويسمع عن هذا الدين العظيم. في تلك الأثناء أراد نبينا الحبيبﷺ أن يتوجه إلى مكة كي يؤدي فريضة الحج. وكانت هذه هي المرة الأولى له بعد أن هاجر وذهب إلى المدينة التي يؤدى فيها فريضة الحج. احتشد في المدينة المسلمون الراغبون في أداء فريضة الحج مع النبي ﷺ. وخرجوا جميعاً قاصدين مكة.

لم يحمل أحد منهم سلاحاً. كان المسلمون يشعرون بنشوة كبيرة، وهم يتقدمون هاتفين:

- لبيك اللهم لبيك... لبيك اللهم لبيك

وصل العدد في الطريق إلى المائة ألف شخص. قطع المسلمون الطريق من مكة إلى المدينة في عشرة أيام. وفي النهاية وصلوا إلى هناك وقد شعروا جميعاً بسعادة غامرة. وعندما رأى رسول الله ﷺ الكعبة دعا الله قائلاً:

- اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً. وزد من شرفه وكرمه وعظمه ممن حجه أواعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً.

ثم قام ومعه أصحابه بالطواف حول الكعبة. وكان المسلمون يتوجهون بالشكر لله ﷻ هاتفين:

- لبيك اللهم لبيك، لبيك اللهم لبيك.

سار نبينا الحبيب ﷺ من بعد ذلك إلى وادي عرفات. وعرفات هواسم يُطلق على جبل مرتفع. صعد رسول الله ﷺ إلى هذا الجبل راكباً ناقته القصواء. نزل بعد ذلك عن ناقته وصلى لله ﷻ. ووقف أصحابه من خلف يصلون معه.

نزل رسول الله بعد ذلك إلى وادي عرفات. وقرأ على المسلمين الذين تجمعوا حوله يستمعون إليه الآية الكريمة:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً...﴾ (المائدة، ٣)

نادى نبينا الحبيب ﷺ راكباً ناقته القصواء في حجة الوداع على أصحابه الذين وصلت أعدادهم في وسط وادي عرفات إلى مائة وأربعة وعشرين ألفاً، وهذا بعض ما جاء في خطبته:



- إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

- أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

- أيها الناس إنكم ستموتون وتلقون ربكم فتحاسبون عما اقترفتم. فلا ترتدوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

- أيها الناس! من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

- أيها الناس إن لِنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق.

- أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنة نبيه.

- أيها الناس اسمعوا مني إنما المؤمنون إخوة.

- أيها الناس تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.

- أيها الناس إن الله سائلكم عني يوم القيامة فماذا ستقولون له؟

انخرط المسلمون في البكاء وهم يقولون:

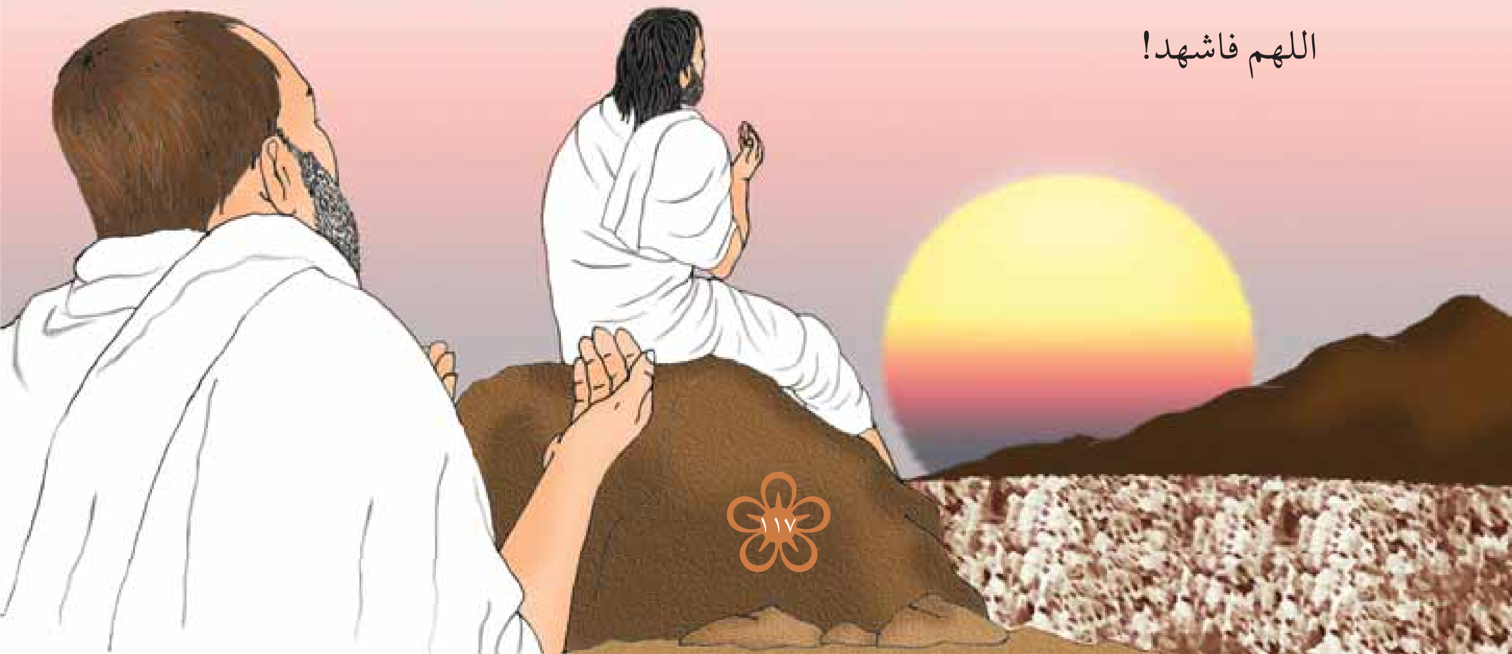
- نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة وجاهدت ونصحت الأمة!

فرفع رسول الله إصبعه السبابة ناحية الصحابة وأنزله، وهو يقول:

- اللهم فاشهد!

اللهم فاشهد!

اللهم فاشهد!



أسمى الناس خُلُقاً

عاد سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أدى فريضة الحج. حينئذٍ كانت مكة تلك البلدة المباركة، ديار الأنبياء، قد تطهرت من الشرك، وعبادة الأصنام.

كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وكان المسلمون، ورسول الله ﷺ يشعرون بالسعادة لذلك.

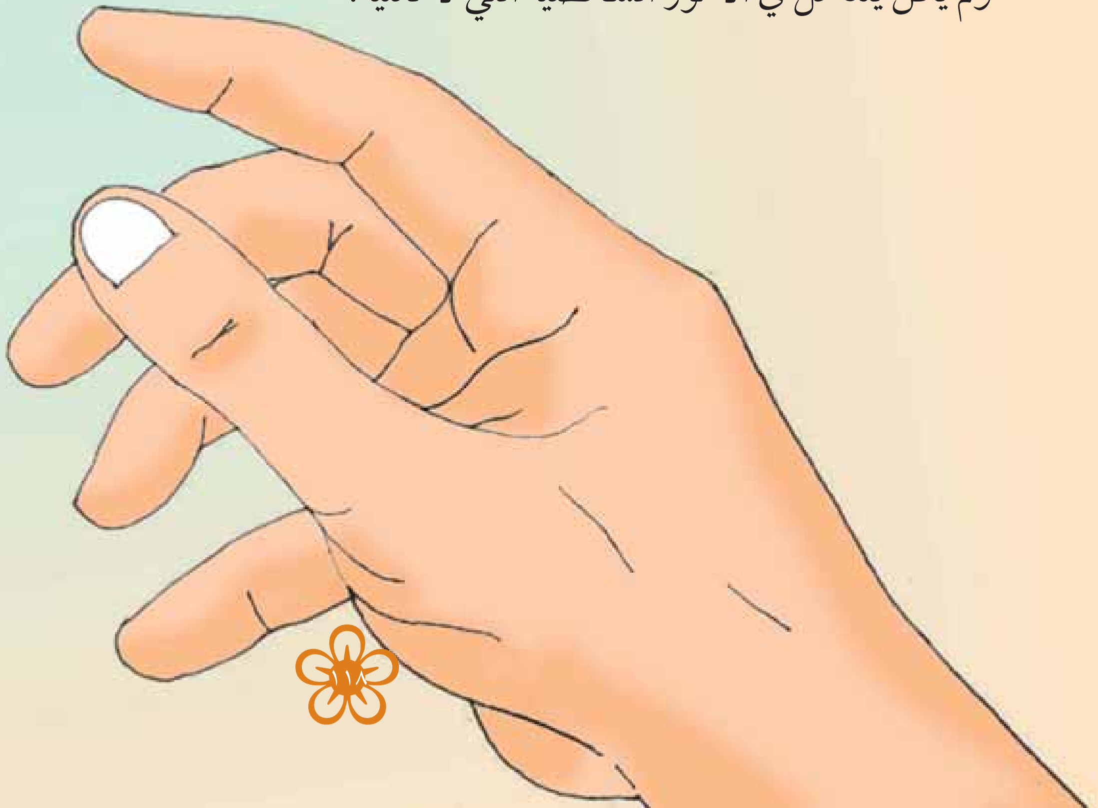
كانت المدينة ومكة حينئذٍ البلدتان اللتان شرفتا بدخول الإسلام، وكانت شبه الجزيرة العربية قد أشرقت بنور الإسلام كذلك.

كان نبينا الحبيب ﷺ يحمد الله ﷻ على كل نعمه. ولم يكن يتفاخر قط بعمل قام به. كان يعلم أن النعم كلها من عند الله ﷻ.

كان رحيماً، طيب القلب، وأسمى الناس خلقاً.

كان يعطف على الفقراء والمساكين والعاجزين والضعفاء، وكان يحميهم ويرعاهم.

كان نبينا الحبيب لا ينطق ببذيء الكلام. وكان إذا تحدث لا يعيب أحداً، أو يجرح شعوره. وكان لا يقطع حديث أحد، بل ينصت إليه حتى يفرغ من حديثه. ولم يكن يهتم بالأشياء التي لا شأن له بها، ولم يكن يتدخل في الأمور الشخصية التي لا تعنيه.





كان نبينا الحبيب ﷺ يعفو عمن يسيء إليه طالما لم يمس الله ودينه. وكان ينزل العقوبة بكل من يخالف القواعد التي أمرنا الله بها.

كان دائم الشكر لله ﷻ على نعمه التي أنعم عليه بها. كان يغسل يده قبل الطعام، ويرضى بما يأكل، ويحمد ربه عقب الإنتهاء منه.

كان نبينا الحبيب بالإضافة إلى ذلك أكثر الناس جوداً، فلم يكن يتردد عن توزيع كل ما يأتيه من مال على الفقراء والمساكين.

لم يكن يحب جمع المال. ولم يفوقه أحد في الصدق والأمانة. كان أكثر الناس عدلاً. فلم يعدل أحد من أمته قدر عدله مع من يرتكب إثماً.

لم يكن نبينا الحبيب يجور على حق الفقراء لصالح الأغنياء كما كان يحدث قبل الإسلام، فصار بأخلاقه الطيبة الجميلة قدوة للناس كافة.

لم يتعمد إساءة أو إهانة أحد.

وكان ﷺ يحب الأطفال كثيراً، ويدخل عليهم البهجة بما يعطيهم من هدايا. فكان الصِبية إذا ما رأوا نبينا يلتفوا حوله فرحين به، مبدين حبهم له.

ولم يكن نبينا ﷺ يمضي في طريقه دون أن يداعب كل طفل منهم على حِدة، كما كان يرعى الصبية اليتامى.

لقد استمرت أخلاقه الطيبة تنتقل من جيل إلى جيل. وهو الذي كرمه الله ﷻ في كتابه الكريم حين قال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)

وفاة نبينا ﷺ



شعر نبينا الحبيب بالتعب بعد عودته من مكة بعشرة أيام وأخذ المرض يشتد عليه كل يوم عن سابقه. ولم يعد يذهب إلى المسجد ليؤم المسلمين في الصلاة.

هزَّ مرض النبي ﷺ المسلمين كلهم من الأعماق. وعلى الرغم من مرض النبي ﷺ إلا أنه لم ينقطع عن التفكير في أصحابة حتى في أصعب لحظات مرضه. فجعل أبوبكر رضي الله عنه يصلي بهم بديلاً عنه.

وفي صباح يوم الإثنين نهض نبينا الحبيب ﷺ من فراشه وقد شعر بقوة في جسده. وتطلع إلى المسلمين من باب المسجد. وشعر بالسعادة لرؤيته المسلمين وقد استعدوا للصلاة وراء أبي بكر رضي الله عنه. أما أبوبكر رضي الله عنه فانتظر ظناً منه أن سيدنا محمد ﷺ هو من سيقيم الصلاة. ولكن نبينا ﷺ أشار إليه أن يقيم الصلاة وتراجع عن الباب.

وكان هذا آخر لقاء للصحابة برسول الله ﷺ. فقد توفي رسول الله ﷺ في ذلك اليوم وهو إلى جوار زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها. وانتشر نبأ وفاة رسول الله ﷺ بين المسلمين على الفور. فتجمّع المسلمون أما م بيت الرسول ﷺ. لم يرد أي منهم أن يُصدّق ما حدث. حتى سيدنا عمر رضي الله عنه استل سيفه، وقال:

"من قال أن محمداً قد مات فسأقتله

هل انتهى أمر الرسول ﷺ معه؟

إلى أين ذهب وتركهم مثل اليتامى؟

كان ألم المسلمين عظيماً. لم يتخيلوا الحياة بدون النبي ﷺ.

أما سيدنا أبوبكر رضي الله عنه فكان أكثرهم قوةً. لم يفقد رباطة جأشه. وتحدث إلى المسلمين من حوله قائلاً:



- أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .... أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران، ١٤٤)

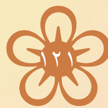
أثّر حديث أبي بكر رضي الله عنه كثيراً في المسلمين لدرجة أنهم أصيبوا بالذهول وبدوا كما لوكانوا يسمعون هذه الآية لأول مرة من سيدنا أبوبكر رضي الله عنه.

نعم كل إنسان سيموت حتى لو كان نبياً. وها هوسيدنا محمد ﷺ خاتم المرسلين يفضي بروحه أيضاً.

حان وقت الصلاة، فقام سيدنا بلال رضي الله عنه يرفع الأذان في المسجد فلم يستطع أن يتمه وانخرط في بكاء حار. وسالت دموع الصحابة أنهاراً. كل هذه الدموع، وهذا الحزن من أجل سيدنا محمد شمس العالمين.

كان قائداً عظيماً أُرسِل للإنسانية. وستخلِّد العصور اسمه.

اللهم سلِّم أفضل سلام على نبينا الحبيب...



المحتـــــويـــات



